إســـــتر

هذه الترجمة الكاملة لرواية

ESTHER

إســـــتر

Miguel Cane

ميجيل كان

ترجمة / إسراء عماد
مصحح لغوي / محمد السيد جوده
الإشراف/ خالد طوبار
الغلاف/ هانيبال - هيبو
الإخراج الداخلي/ فاطمة عنان

سلسلة من كل بلد كتاب - رواية من الأرجنتين

الطبعة الأولى/ القاهرة 2014

ISBN: 978 - 977 - 6299 - 24 - 5

وكالة سفنكس

٧ شارع معروف الدور السابع

وسط البلد – القاهرة

ت/ف: 002 02 25792865

www.sphinxagency.com

info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أواقتباس هذا العمل أوأي جزء منه بأي وسيلة تصويرية أوإليكترونية أوميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أوأقراص مقروءة أوأي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات دون إذن كتابي من الناشر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية

This book is translated with a financial support of
Arts Council
Sphinx Agency © 2014

ميجيل كان

إســـتر

ترجمة / إسراء عماد

وكالة سفنكس

* من الناشر إلى المساهمين

فكرنا عند إعداد الصفحة الرابعة من السلسلة الأدبية التى تجهَّز الآن للطباعة في أن نخصصها لبعض الأفكار المتعلقة بالمخطط العام للعمل الواقع بين أيدينا وذلك فى مقدمةٍ كتقديرٍ منا للمساهمين الحاليين، و المستقبليين للعمل.

وعندما تلقينا الخطاب التالى من (د/ خوان ماريا جيتيراز) كنا قد خططنا بالفعل بعض الأسطر فى العمل، ولسنا فى حاجة لوصف السرور الشديد الذى تملكنا أثناء قراءتها ولا السعادة البالغة التى غمرتنا بها كلماتها. وبدون شك سيعجز المثقفون من شباب الفضة *(الأرجنتين) تماماً مثلنا عن شكر شاعر البلاط على هذه الرسالة الرائعة، وعلى سماحه لنا بوضعها فى مستهل المجلد، وذلك كاعتراف وتقديرٍ بسيطٍ منا لقيمة ما منحنا إياه.

سنعيد الرد على(د/جيتيراز) فى المجلد التالى، أما الآن سنقتصر فقط على تهنئته بشكل ودى على رسالته اللامعة، وترجيته للإسراع فى الانتهاء من الكتاب ذى الأفكار الوطنية الذى سيمُن علينا -بشهامة- ويسمح لنا بطباعته فى أقرب وقتٍ ممكن، فصديقنا يعلم تمام العلم أننا المناسبون فى مثل هذه الحالات لعرض المادة كما ينبغى أن يكون عرضها، وبشكل وافٍ.

ويتبقى الآن تنبيهه بأن يكمل وعده لنا، وإن لم يكن هذا العام فلديه عام(١٨٥٩) بأكمله.

وها هو نص الخطاب الذى أشرنا إليه:

روساريو، الأحد(١٧ أكتوبر)١٨٥٨

أ.د/ أليخاندرو ميجانيوز سربنتس.... صديقى العزيز:

واحد من بين الأصدقاء المخلصين...عند المجئ لتشجيعك وتهنئتك على مؤسستك الأدبية الجديدة، لن أكون آخر من يأتى منهم، وذلك لاهتمامى الشديد بالنجاح الباهر الذى تتمنى لها، بالإضافة إلى رغبتى فى أن أجلب لك أفضل نجمة تلقاها سابقوك.

المكتبة الأمريكية هى نتيجة فكر دبَّ فى عقول العديد من أصدقائنا منذ سنين، وبأشكال مختلفة للتقدم من أجل التطور الفكرى لقارتنا، فقد نبتت بذرتك الأولى بالنضارة التى تمنيتها، وذلك بفضل أقلام (بيو و جرسيا ديل ريو) التى كانت مناسبة تماماً، ولكن الجو العام فى لندن لم يكن ملائماً لاستقبال هذا الأدب للفنزويلى (توريد اديل دلى) أو أن الاهتمام الوطنى وجَّههم للسياسة عِوضاً عن الآداب.

وفى الواقع فقد ظل الاهتمام بالسلاسل الأدبية و، الأعمال المسرحية والموسيقية -على الرغم من معرفة الباحثين بهم- فى وسط الطريق، فقد دمج المقال النقدى الأخير فى واحد من تلك المنشورات تلك الأغنية التى تغنت بنصر "أيتوزينجو" كاشفة الصدفة-التى عند حجب منارة الإعجاب الأمريكى بين سحابات المجلترا- ستبدأ أيضاً بإخفاء ضوء الشمس الساطع لنجاحاتنا، فمنذ عام(١٨٢٨) كانت الحروب الأهلية والحكومة الفاسدة، والجرائم والصمت: هم تعبير عن وجودنا خلال خمس سنوات.

شق الكتاب المسمى"زهرة كولومبيا" طريقه بهذا الاسم الخلاب حاملاً أهدافاً مماثلة ل"روز و بوريت" الذى كان بلا حياة منذ طباعته فى باريس، ومنذ أول مجلداته، ولكن لم يُنسَ بالكامل، فى حين أن أمجاد الجنس الأمريكى-وروايته المتجددة-جعله كتاباً ممتعاً ومفيداً.

حملت دائماً تقلبات حياة "جارسيا ديلا ريو" مساعد "المحرر*" فكرة إظهار جدارة المفكرين، الشعراء والرجال الأفاضل فى بلده للعالم أجمع، فقد وجدت -دائماً- لديه لحظة استرخاء يقوم فيها بعقد خيوط أنسجته وذلك بتحرير صفحة أو عدة صفحات من أحد كتبه التى لم يكتمل شكلها النهائى، فينسجه صفحةً صفحة، كما يمكن الاطلاع على أكثرها فى مجلة "الأمريكتان" التى تحررت فى "فالبارايسو*"، آخر مقر له قبل الانطلاق فى جولته الأخيرة.

فقد كشفت تلك المقالات -دون استثناء- الميل إلى استحضار الطاقات العقلية المفيدة النابعة من الذات الأمريكية إلى مجال واسع وعام، تلك التى تنبع من الذات الأمريكية والتى عملت على تعزيز التركيز الفكرى حول أمر ما.

*المحرر: لقب (سيمون بوليبار) وهو أحد الشخصيات الأساسية فى تحرير دول أمريكا الجنوبية من الاستعمار الإسبانى.

*فالبارايسو : أحدى مدن تشيلى و تعتبر أهم الموانئ البحرية.

لن يكون المنبع لكل تلك العلوم أكثر تماسكاً من ذلك، فهناك تتلاقى وحدة الأصل، وحدة اللغة، وتشابه نظام الحكم، كما تتعايش القرى كما لو كانت أسراً تتبنى الآداب، حيث تتناغم الاهتمامات، تجمعهم الحماسة متباهين بأنفسهم علناً لقدرتهم على إنتاج كل ما هو جميل و رائع، وتشابه المشاعر كان سبباً فى المؤاخاة بينهم، وهكذا كانت النتيجة الحتمية لنجاح أى من تلك المقالات فى الجمهوريات المستقلة التى قسمت أمريكا فيها على الملكان الكاثوليكيين *.

عززت تلك الفترة الطويلة التى فصلت بين تلك المحاولات القديمة ووقتنا الحالى فى أوربا وأمريكا أيضاً دراسة الأدب المولود فى أمريكا الجنوبية بداية من حيث انتهى إليه الآخرون، فقد جمع ماسبق وتم تصنيفه و وضعه فى مجلدات متجانسة، فكان ذلك ضرورة حتمية، نظراً للتشتت وعدم النظام الموجودان فى

أعمال السابقين.

فقد ظهرت فى (فنزويلا و نويبا جرانادا) مجموعات عديدة تشمل أجزاء من أفضل ما انتقاه المعاصرون من الأدب الممتع، أما تشيلى: فقد جمعت بين الوقت والمال لجعل مجموعاتها التاريخية الوطنية أكثر إثراءاً ، ولتمجيد بعض الأسماء التى استحقت الذكر لكونها لمعت على مر العصور وابختلاف الأماكن.

وفى النهاية و دون أن نحكم على نجاح أو أداء "ترنكس كومبانس*" لعمله يقدر كثيرٌ من الأمريكان هذا العالم المتضلع ،نظراً لنقله كتب الأخبار، الروايات التاريخية وروايات الرحلات المتعلقة باكتشاف وغزو الأراضى الإسبانية فى هذا المكان من العالم بشكل بسيط وبأكثر اللغات انتشاراً بين اللغات الحية.

مُنع أى أمريكى منذ عهد (كارلوس الخامس) وحتى عهد (فيرناندو السابع) من الدراسة خارج الأراضى الإسبانية، فكان على هذا الرجعى الأمريكى الشغوف أن يخاف من تأثير المدارس الإيطالية المسيطرة كما خشي الإجراءات الإيطالية التجارية و مذاهبهم الاقتصادية.

فقد تمتعت -فقط- كلاً من جامعتى(سلامنكا والكالا) بميزة الجمع بين رؤاها الفياضة الغير واضحة و دراسات جامعتى (المكسيك وليما) المتضربة أيضاً، مواجهة النكبة المحزنة، ففى الوقت الذى بدأت تظهر فيه نوابغها،سقطت فيه الآداب الإسبانية فى عصر الظلمات، والولع الشديد الذى أصبح ضرورياً لتهذيب المفاهيم.

*هنرى ترنكس كومبانس: مؤرخ فرنسى،بعد الانتهاء من دراسته فى باريس دخل السرك الدبلوماسى وأصبح سكرتيراً للسفارات فى مدريد ولشبونة.

*الملكان الكاثوليكيان: هما الزوجان (فرناندو الثانى وإيزابيلا الأولى).

كانت العلوم كتأليفٍ منتحلٍ من اقتباسات عديدة ومقالات

معدة سابقاً، والأدب يشبه هول ملئ بالتكلف والأسلوب المبتذل المبالغ فى التصوير، وعلى الرغم من أن أختلاف البيئات فى أمريكا من هدؤء الأديرة إلى ضجة المخيمات، وساحات القضاء إلا أن الاجتهاد العظيم والموهبة الأمريكية التى تنبض بالحياة أتيا بثمارهما التلقائية والمصطنعة الناتجة عن عمل الدراسات. فسواء أعتبرات هذة المنتجات جيدة أم سيئة، ولكنها كانت دائماً مثيرة للفضول، كما أعتبر مزجهم بالثروة الأدبية الإسبانية أمراً طبيعياً.

إن لم يضيف "جارسيلاسو"* لقب أنكا إلى اسمه، لتوقع تلقى خطاب من المؤرخ "برسكوت" ليُعرف به هذا المؤرخ البيروانى الشهير الذى لم تعرف له سيرة ذاتية من قبل، تجسد الشعر الملحمى التشيلى فى القرن السابع عشر فى أخ أصغر "لإرشيا"، الذى أن افتخر بوطنه عندما ذكر فى مقدمة قصائده أنه ولد على الحدود الحربية "لأراوكو" *.أما ألركون-الذى كان إلهاماً لواحدة من أفضل المسرحيات الدرامية للعظيم "كورنى" *- فلم تجرفه رغبة المعاصرين فى مدريد إلى طريق الشهرة واللقب المكسيكى المجيد،لنُسب إلى شبة الجزيرة الإسبانية.

ليس هناك نطاق واسع أمام من ينوى الانفصال عن قيود الأدب الإسبانى، فيا لها من سعادة حقيقية ! تدفع وحدة اللغة فى إسبانيا و أمريكا الجنوبية تلك الضريبة!.

فالعمل من هذا النوع يجلب كل دروب السعادة والاستفادة الأكبر، ويخدع من يظن أن الشخصية العامية يمكنها فعل ذلك كما أن الصبر فى هذة الحالة هو واحد من العوامل المساعدة للعالم المتضلع من أجل القيام بواجبه، ولكن إن نقصته المعرفة أو الذوق: فلن يستطيع الاختيار أو التصنيف، وسيُخرج من التراب إلى النور ما لا يستحق الظهور، ويحكم على اللآلىء الحقيقية بأن تظل منسية، ومن ناحية أخرى لم تساعد معرفة أعمال الكتاب الأمريكين الموجودة بين صفحات التاريخ الغير مكتملة فى تلك الفترة الهامة على فهم الهوية الأمريكية

و كيفية اقتضاب مشاعرهم الخاصة وحريتهم الفكرية، فأنت ترى فيهم في كل لحظة تعبيراً عن الشعور بكونهم منعزلين عن شمس المُلك الإسبانى التى تتميز بحمايتها للنوابغ من الكتاب المهتمين بأمر الوطن و المحاطين بصعوبات تمنعهم من إبراز ثمار أعمالهم التى سهروا عليها، علاوة على ذلك: لاحظ لدى المؤرخين بشكل خاص وضعهم لتقييم الحقائق وحساب المصالح داخل وجهة نظر خاصة، و لدى السياسين و رجال الدولة حماسة مشتعلة وذكية من أجل الحصول على الحقوق والامتيازات و ازدهار وطنه أكثر من سكان الجزيرة الأيبرية، مؤكدين أن أسباب رفع الحماية ازدادت وانتشرت منذ قديم الأزال، مع الأجيال الأولى التى نشأت نتيجة الاختلاط بين الدماء الإسبانية والهندية-السكان الأصلين لأمريكا الجنوبية-.

أستنتج من هنا... صديقى العزيز: أنه لم تأخذ المؤسسة كل القدر الذى -وبدون شك قد خططت له من قبل، لن يكون هذا بسبب نقص فى المواد المعروضة ولا فى تعدد الموضوعات إنما تشكيل ما يسمى"حوليات العبقرية الأمريكية" سيقتصر على الجزء الأخير لنهايات القرن الماضى لتكون موضوع العديد من المجلدات، ولتأخذ منه المطابع للعمل فى إنتاج سلسلة طويلة من المؤلفات لمكتبتك.

*أنكا جرسيلاسو دى لا بيجا: مؤرخ بيروانى، كانت والداته إحدى أفراد العائلة المالكة فى(بيرو) لذلك مُنح لقب أنكا الذى افتخر به كثيراً.

*أراوكو: إحدى مدن تشيلى .

*بيار كورنى: شاعر مسرحى فرنسى كبير

لم يكن المحصول الأدبى فى الأرجنتين ضئيلاً، فعلى سبيل المثال "اليتيم" لا زال يأرخه اثنان من المؤرخين البارزين "اليسوعيين وإيتورى"، وهو بسيط وذو إيمان مبارك وأخلاقيات، ولد فى السفوح الشرقية لسلسة جبال فى واحدة من محافظات(كوياناس) عانت أعمالاً كاملة (للوكا، فراى

كيتون رودريجس*، وأتشيفيرا*) الذى ظل فى كتابه"ملاك ضال" دون أن يوضح لنا أسرار إلهامه وقافيته الرائعة -من الإهمال الذى لا يستحقه هؤلاء الشعراء اللامعين، ونقلتُ فى وقت لاحقٍ من جديد ذلك التساؤل... لماذا لم نستقصى عن نهاية هذه الأعمال التى أوصى بها المعاصرون للأورخانى* كامانيو، السنتيجو* خواريس، أوخنيو لوبيز، جى بى ماسيل، بيرفيكتو دى سالس، الأخوان رويبيسى، الواعظين المشهورين مونتيروس، بارينتوس،باسالو، تشامبو، سوليفان بيانتوبيا جارسيا، خوليان دى ليفا، لبردين، خوسى خواكين دى أروجو، فراى خوليان بردريال وغيرهم؟... جميعهم رجال بارزين فى الأدب، ولديهم معرفةً عميقة بشؤون الوطن، وشخصية ذات أخلاقٍ عاليةٍ.

تناول د/برتلومى ميترى* فى المقدمة الرائعة المليئة بالمعارف فى كتابه "قاعات الاحتفالات الأرجنتينية" معالم معينة لتحديد الطريق الذى يمكن أن يقودنا لإيجاد "كنوز" الأدب الذى يختص بشؤون الوطن.

"لديك حماسة وعادات للعمل ووقت تكرسه لتلك الأحلام السعيدة.. كن البادئ والمشجع للقيام بمثل هذه الإحياءات، ولتحكى -بثقة- عن الامتنان الذى تلقاه من تفهم أن شرف الوطن يكتمل بمطالبة هؤلاء من دراسى فى الماضى وأنتجوا بعد تأمل سابقيهم-فلاشئ يموت كلياً- كما أن تواضع الديمقراطية تمنعنا من النحت فى الرخام ورفع الآثار لتصبح رمزاً للمجد الإنسانى، وجعلنا اختراع"غوتنبرغ"* أكثر اتساقاً من الجرانيت، وقد حفظ أسلافنا من السقوط فى بئر النسيان للأبد.

*يوهان غوتينبرغ:مخترع ألمانى ولد فى(١٣٩٨) وتوفى عام(١٤٦٨) ويعتبر مخترع الطباعة الحديثة.

*كيتون خوسى رودريجيز: رجل دين وطنى وشاعر أرجنتينى.

*أستيفان أتشيفيرا: كاتب وشاعر أرجنتينى، أدخل الحركة

الرومانسية إلى بلده انتمى لجيل٣٧.

*برتلومى ميترى: رجل عسكرى وسياسى، مؤرخ، أديب وصحفى أرجنتينى، كان محافظ بوينوس أيرس ورئيس الأرجنتين منذ عام(١٨٦٢حتى ١٨٦٨).

نجمع بين الحاضر والماضى لكى يكون التقدم سليماً، وليصبح تطورنا وتنميتنا المستمرة قائمة على أساس، فالشعوب مثل العائلات -أكرر هذا هنا لأنه محور موضوعى- يحتاجوا للإصلاح من حالهم ليس فقط أمام من راقبوا وحكموا على أسلافهم بشكل أخلاقى، وإنما أمام الأجيال القادمة الصارمة فى حكمها أيضاً. لذلك يجب علينا أن نكون أفضل ممن كانوا فى الماضى، ولا نكون أقل فى شئ، ونعد أنفسنا للرحيل من العالم مع إدراك أن الآخرين سيتوجب عليهم أن يتذكرونا دون خجل، ويعترفوا بنا بكل استحسان كما فعلوا مع السابقين. فماذا يكون شعب يجهل ماضيه؟! كالأعمى الضائع وسط فوضى الأحداث الحالية، ولا يعى شيئاً، وكيف سيكون هناك شعب من الأساس إن لم يكون لديه تاريخ مكتوب، واحتفالات معروفة، وذكريات لأحداث عظيمة، وآلام يرثى بها الناس علناً؟ و أخيراً كيف ستتواجد خيوط "أريدنا" فى متاهات القضايا التى تخص الحقوق السياسية إذا كان التاريخ مظلماً وهو فى الوقت ذاته الشعلة التى تنير القلوب والعقول عندما يكسر فى يوم ما القيود الاجتماعية؟

وعدك العديد من الكتاب المعروفين بتقديم أعمال تاريخية لمكتبتك ،يجب أن يكون لها تاثير، أوهذا ما أتمنى-على الشباب الأرجنتينى ليتوجه نحو عمل أبحاث و دراسات فى هذا المجال، فالتاريخ هو تفريغ لكل المواهب والطاقات وباقى العلوم الأدبية تلتف حوله فى حلقة، نطالب ببريق وليونة فى فرشاة الرسام، بشدة فى أزميل النحات، بتصوير يعكس التجسيد والنتوءات، وبالتأمل الذى يفرض على صفحاتك فيجعلها تزن ذهب، بالنقد القريب للواقع، وبالقلب الذى يحن، وبالتخفيف

من انتداء الدمع يعد التاريخ أماً للعلوم مثل المسيحية التى حررت الناس ومانحهم أجنحة ليحلقوا، وفى أيامنا هذه هو مصدر الإلهام الذى يعزى النوابغ الغارقة فى أمواج المور العامة المضطربة، وهو ما ينظم الجنود الذى يخوضون معارك مع الصحافة أو على المنصات العامة فى الخطب من يرسم شكلاً عاماً أو خاصاً للوطن فهو سعيد، كذلك إن استطاع أن يقول بقلمه ما قاله "جرويسى"* بفرشاته : "رسمت الوطن فى قلبى".

حان الوقت ليحلق نبوغ التاريخ بحثاً عن عقل أرجنتينى يستقر داخله أعرف بعض المواطنين-دون ذكر ما خلفه- يركزوا انتباهم من قديم الأزال على هذه الدراسة مدربين كل قواهم لإنتاج الصفحات العظيمة التى لا دخل لنا بها، فقط نتأملها مطورين من أنفسنا من أجل المستقبل، فربما حانت اللحظة التى يجب أن تسرع فيها المكتبة لتنفذ هذا الفعل الذى يجب -بالضرورة- التحقق منه، أما أنت فيكفيك الاعتزاز بكونك أثرت هذا الأمر، فهل ينقصك الشعور بالحماية أم بالحماسة؟! فهناك شباب يسقط أحياناً فى شباك غابة من ركاكة الأسلوب، فأن لا ترغب فى أن تستوحى من الأحداث الواقعية لتنتج "قصة فروسية تاريخية" كما فعل"أدلفو بيرو" من أجل أن يصبغ السحاب المظلم "لفونيس" وقحولة "ننيس".

فكم من كلمات يجب أن تقال ثانية؟! ... وكم تثمر التأملات فى تواريخنا القديمة !

أكتب لك من فوق منحنى ضخم تجرى فيه المياه نحو الأرجنتين (بلاد الفضة) ويقترب من حيث تغرب الشمس، وهو بمثابة باب خارجى يسمح بمرور المنتجات إلى داخل الجمهمورية الأرجنتنية جغرافيا هذا المكان هو صنيعة الخالق الذى قد خصصها لتصبح مركزاً تجارياً و بؤرة حضارية ينتشر منها السلام.

كما كشف التاريخ هذا الطريق منذ عصر الفتح، وعلى بعد أميال قليلة فى عام(١٥٢٦) أقام "سباستيان كابوت"* قلعة ونصب صليباً، وبعد عشرين عاماً رست سفينة رفاق(فرانسيسكو دى

موبندوسا) هنا من جديد وذلك كنهاية رحلاتهم التى بدأت من بيرو، حيث توافدو من الشرق والغرب وهم مَن أرسوا تلك الحضارة التى نستمتع بها الآن فى هذه الأراضى الرائعة، كما كشف التاريخ الحجاب الذى يخفى دليل إرادة المبدع.

أتمنى لك نجاحاً باهراً فى مؤسستك التى هى أهل للإعزاز، وسأظل أردد ذلك دائماً ...صديقك

خوان ماريا جيتراز

*جان باتيست جروبسى: رسام فرنسى.
*فونيس: مدينة فى الأرجنتين.
* نيس: حى فى بوينوس أيرس –الأرجنتين.
*أدلفو بيرو: شاعر من أروجواى.
*سباستيان كابوت: مستكشف وبحار إيطالى، ولد فى البندقية.

ميجيل كانى

ولد فى(٢٦ أبريل ١٨١٢) فى أحد أملاك والديه فى الريف يدعى "الجبروبوس"،تبعد(٤٠) فرسخ عن شمال (بوينوسأيرس) عاصمة الأرجنتين، وقد أنهى دراسته التمهيدية فى جامعة بوينوس أيرس وحصل على درجة الدكتوراة فى الحقوق فى(١٠مايو ١٨٣٥) وفى ذات اليوم و بعد ساعتين من انتهاء الحفلة الجامعية: هاجر من بلده هرباً من طغيان "روساس" الذى جعل البقاء فيها شيئاً لا يُحتمل متجهاً إلى "مونتيديو" حيث عاش فى منزل صديقه السياسى "فلورنسيو باريلا" ممارساً مهنة الحقوق، ثم التحق بسجل الولاية الشمالية "بأوراجواى" كمحامى فى أبريل(١٨٣٩) واستمر فى اتباع خطى فقيد العلم(باريلا)، فأسس جريدة من الجميع وللجميع سميت "مُشرع"، ولقد ظهرت فى كل صفحاتها حماسة وإيمان المدرسة الأدبية لذلك العصر حيث كتب بها كلاً من (أستيبان أتشيفيرا،ألبيردى،

خوان جيتراز،بترلومى ميترى، فليكس فريس*، كارلوس تخيدور*) وغيرهم الكثرين من شباب المنفى.

باتت النتائج المشؤومة لهذا التأثير السيئ من قِبل الحاكم الظالم فى الأرجنتين تظهر كما لو كانت من قبل تأثيرات غريبة تُمارس من الخارج، ولإحقاك الحق فقد كانت الخطوات الأولى للرئيس "د/مانويل أوريبى" لا غبار عليها، وللحكم على ما سمعنا من أشخاص بارزين ،فقد اعتبر الهجرة الأرجنتية شيئاً جيداً أكثر من كونه أمراً عدائياً .

سيكتب قلم التاريخ مقدراُ ذات يوم الأسباب التى جعلت بعض الأشخاص -وبدون أى سبب واضح عدا كونهم أعداءاً حقيقين لروساس- أن يشعلوا نيران الخلاف ويزعزعوا أمن وسلامة الدولة، فقد كان الأرجنتينين من قاطنى الجزء الشرقى مضطهدين و مطرودين منها بعنف، مما جعلهم يتوجهون -وبشكل طبيعى- نحو حزب الجنرال "ريبيرا" الذى اهتاج للأسباب التى لا ينبغى لنا توضيحها هنا نظراً لسردنا سيرة نقدية وليس أحداثاً تاريخية.

يكفينا فقط القول أن (كانى) سجُن و نُفى مثله مثل" أجويرو" وكل أنصار باريلا، بل وكل مواطنى الأرجنتين.

حكمَ أوريبى بوينوس أيرس بعد نجاح الثورة، بينما أنشأ كانى و"لاماس" جريدة سميت "الوطنية" فى مونتيديو عام(١٨٣٨) بالاتحاد مع" ألبيردى" ، واستمر تحريرها ثمانية أشهر، وبعد ظهورها بأيام قليلة انفصل(لاماس) عنها، كما توقف تحريرها تماماً بعد شهر من تأسيسها بسبب عقبات مع الناشر، ولكن ظل(كانى وألبيردى) معاً فأقاموا أخرى وأسموها"مجلة الفضة"، كذلك لم تدم كثيراً على الرغم من السمعة الجيدة التى حازت بها ومساندة عدد كبير من الكتاب.

أكد د/كانى على أن المطابع فى ذلك الوقت عزمت على محاكاة المقصلة* على سبيل السخرية، فقد قضت على الذكاء البشرى، أما من جانبنا نحن: فيمكننا التأكيد على أنه كان هذا ما سار

فى (مونتبديو ، فبوينوس أيرس) لم تخسر كتابها "المهرة" بعد سقوط مجلة الفضة، أسس كاتبنا بالتعاون مع (ألبيردى) جريدة "المستقبل" التى ماتت هى الأخرى معدومة بمقصلة *المطابع .
منذ عام(١٨٣٧) وحتى(١٨٤٣) عاش منُهك نفسه فى شيئان: هما السياسة من أجل تحرير الوطن، و المحاماة التى كانت عمله وسبيل رزقه.
* فليكس فريس: سياسى و صحفى أرجنتينى كان ممثلاً للرومانسية الكاثلوكية فى الجزء التانى من القرن التاسع عشر.
*كارلوس تخيدور: سياسى أرجنتينى ،ومحافظ بوينوس أيرس من (١٨٨٧ وحتى ١٨٨٠).
وخلال تلك الفترة شارك فى تحرير جرائد مثل "القرصان" و"موبرا روساس" وآخرين دفنوا قبل ولادتهم والتحق بالجيش وتولى قيادة أول سرية للمقاومة الأرجنتنية عند ظهور الجيش المنتصر عند ربوة "أوريو جراندى"، وظل فى صفوفه عامان ونصف، دعا فى المحكمة ليدافع عن الفقراء فى الأمور الجنائية، كما عُين نائباً عاماً فى الأمور الخطيرة التى تخص أوضاع البلاد، وقد تخلى عن الحياة العسكرية من أجل الكتابة، وعن العيش داخل الأسوار من أجل المحاماة.

غير أن موت زوجته فى يونيو(١٨٤٧) غيرمجرى حياته وأحزنه بشكل كبير جعل رحيله من (مونتبديو) إلى فرنسا أمراً ضرورياً،ومكث هناك شهرين بعد هذا الحدث، وأثناء رحلته تسلى بكتابة بعض مشاهد وأحداث حرب أورجواى العنيدة المفزعة، وبعض الصور فى الحياة السياسية لأشخاص نبلاء من ضفتى نهر الأرجنتين، ولم تظهر تلك الكتابات للنور، فقد حفظها بين مذكراته فى منزله ولم يفكر فى نشرها حتى الآن.
فقد رأى(كانى) أن نصر(مونتبديو) كان نجاة لوطنه، وأكد على أنه عاوَن الجنرال(ميلتشور باتشيو أى أوبيس) وأعطاه كل عزيمته كصديق ومساعد وناصح فى كل أعماله الدبلوماسية فى فرنسا، والتى هدفت إلى تصدى فرنسا لروساس.

كانت هذه الرحلة بمثابة تحقيق تطلعاته نحو الحضارة، كما خدمته فى تهذيب حواسه بشكل يراعى مبادئ الذوق السليم، عاد بعدها إلى أمريكا بعدما استجمت عافيته و خدرت آلامه. وفى عام(١٨٤٩) أجبرته ظروفٌ خاصة للرحيل من (منتبديو) والعودة إلى أوربا من جديد، حين أراد أن يقول وداعاً لبلده- التى هى بمثابه أم له- ظن أنه سيكون وداعاً أبدياً، ولكنه عاد إلى(بوينوس أيرس) عام(١٨٥٠) حيث يوجد عدوه المريع اللدود(روساس) مفعماً بإحساسه بالشجاعة لمواجهة الأخطار التى أسندها له سابقيه فى صراعه ضد ظلمه، وخلال بقائه هناك لأيام قلائل لا تتعدى الثلاثين يوماً سجل خلالها انطباعاته فى كتاب أسماه "نزهة فى بوينوس ايرس"، ولكن لم ينشر منه إلا فصل واحد فقط الأول بعنوان"بوينوس ايرس والأوبرا الإيطالية" والثانى "بوينوس أيرس وضواحيها".وفى رحلته الثانية زار كل أرجاء فرنسا، و أجزاءاً من سويسرا، بلجيكا وإيطاليا بهدف عمل دراسات و التعرف على رجال أذكياء.

كتب عمله "أستير" -الذى ننشره فى هذا المجلد من مكتبتنا - فى فلورنسيا واصفاً ما فيها و ذلك فوق قبر المخلوقة النبيلة التى شاركت الرحالة دراسته وآلامه، فقد نبهه خبر انشقاق الجنرال "أوركسيا" عن روساس إلى أنه عليه العودة إلى الوطن وكسر القيود التى كانت تخيفه و القرار الذى كان قد أخذه بالرحيل من الأرجنتين للأبد، فصعد السفينه إلى "هافرى دى جراسيا" متوجهاً إلى (مونتبديو) التى عادت إليها الحياة وتحررت، وبينما كان على مشارف النهر تلقى خبر موت روساس على سفينه خرج (بهافى فبراير ١٨٥٢). ومنذ هذه اللحظة حدثنا مكرراً أنه فى محادثاته العائلية اتخذ قرارالعودة للعيش والموت فى مسقط رأسه، ولكن بعض أعماله الخاصة أبقته ثلاثة شهور متتابعة فى مونتبديو حيث استطاع فى النهاية مفارقتها والعودة إلى (بوينوس أيرس).

ساءت الأمور فى بعض لحظات حياته فانعزل عن التيار

المسيطر على الوضع السياسى للبلاد، كما قد كتب لنا فى خطاب أمامنا الآن قائلاً:"تقابلت مع أصدقاء رافقونى فى المنفى وقد وصلوا للسلطة، واستسلمت لهم دون اختبار وسقطت معهم فى ثورة سبتمبر" عاد إلى منتبديو متعباً من تقلبات الدهر المتكررة، فكما قال عاد ليكسب و يخسر بعض القضايا، ولينعزل عن السياسة.

تملكته رغبة فى عدم الاكتراث لما يدور حوله-هى زائفة بلا شك- ولكنها مدعومة بإصرار، أعطته مجالاً ليقضى بعض أوقات من التسلية والسلوى، فاستغلها فى كتابه (ذكريات رحلاته) التى قرأنا بعضاً منها فى كتب بمسميات مختلفة، ولكن خضع تظاهره هذا لطبيعة الوضع، فبعد ثورة نوفمبر(١٨٥٦) المشؤومة قبل تولى تحرير جريدة"التجارة فى بلاد الفضة" لمؤسسها "فلورنسو باريلا" واستمر فى العمل بها لمدة عامين برصانة و حكمة، و كذلك بطاقة وموهبة كما عاد للحياة السياسية، فلم يستطع النظر لهذا التقدم السائد فى وطنه بلا مبالاة، وكعامل أمين لوطنه أراد أن يأتى بملئ يده ويضع فى بنيانه.

عاد هو وعائلته فى نوفمبر(١٨٥٧) إلى (بوينوس أيرس) حيث يمارس الآن وظيفته بشهرة واسعة وهو مستحقٌ عن جدارة أن ينصب عضو نقابة المحامين، وعضو شرفى فى كلاً من: معهد التاريخ والجغرافيا، المجمع الأدبى للفضة و الجمعية الأدبية، وكذلك مدير قسم الأعمال النثرية فى الأولى ومدير لجنة المراقبة فى الثانية، أما عن أعماله الأدبية الأكثر شهرة -إن لم تخدعنا الذاكرة- بجانب الجرائد التى ذكرناها "الكورة"، "ليلة العرس"، "عائلة سكونير"، "الترابياتو"، "سيمانيرا"، " أستير" وظهروا للنور مؤخراً. كما نشرت له مقالات عديدة فى محكمة (بوينوس أيرس) حيث كان مدير القسم القضائى والأدبى هناك، وكما نعلم أن لديه بحافظة محياته أعمالاً مثل "لورا" و"موت الشاعر" وتصويرات لأشخاص سياسين ربما يقرر

الكاتب نشرهم فيما بعد، وحينها سنتولى نحن ذلك فى مكتبتنا إذا أمد الله فى عمره و أراد صديقنا وشريكنا أن يكمل كتاباته وهذا ما نتمناه.

مجارنيوس سربنتيس

بوينوس أيرس، ٢٢أكتوبر ١٨٥٨

*المقصلة: آلة حادة الشائع عن استعمالها قطع رأس المحكوم عليهم بالقتل، ولكنها استخدمت فى المطابع للتخلص من الذى بلا فائدة.

أستر

ليس هناك حزناً أعمق من تذكر لحظة سعيدة وسط التعاسة.
دانتى

- I -

كسا ربيع "فلورنسيا" *الآتى قبل أوانه الأشجار، الزهور، البساتين والجبال بينما كان الجليد لازال يطوق صداغ جبل "أبانينو"*.يوجد على يسار "لاس كالساسيناس"- ملتقى الأحبة فى مجتمع فلورنسيا الراقى- مياه نهر"أرنو" *الغزيرة العكرة، وعلى يمينه المناظر الساحرة لكلاً من فيسولى، براتولينو ومائة قرية أخرى من المنافسة بجمالها فى الشعر يفرش المنتجع بساطة الأخضر من نبات التريبول والأشجار تهز عباءة السكون القاتل بدا المكان مسروراً ضاحكاً كالطفل الذى يخرج ليتنفس الهواء فى الحقول بعد عام من الدراسة.

يظل "أوخنيو" وحيداً ً فى كل الأماكن، ضلَّ تحت ظلال الأشجار الموجودة منذ قرون، شارداً فى المصير المجهول لوطنه الحبيب، فى آلام حياته المحزنة، وفى هذا العالم الذى يظهر أمام عيناه بارداً، غير مبالى وأنانى، أما جواده الرائع الذى اشتره من (ماريسماس) نشأ على العادات الأمريكية وسلساً فى القيادة ككلاب الصيد-يضرب الأرض ويتنفس النسيم العطر بعجرفة وكأنه يطلب بنظراته القوية القليل من الحركة والانطلاق على طريقة الخيول البرية، وأمره أوخني

بصوت خانق أن يهدئ، فلقد استحوذت علة الوطن على روح الفارس وبدا الحيوان وقد استسلم لمزاج سيده الكئيب واستمر فى طريقه بحزن حتى ضربت صرخة رعب مسامعه، والجلبة الآتية من صوت عشرين حصانٍ منطلقين على الطريق جعلته يحدِّق بعينيه، وإذا بعربة أنيقة تجرها خيولٌ نشطه جامحة تجرى فإما أن تسقط فى النهر أو ترتطم بواحد من ركام الحجارة التى تقسم الطريق جانباً للسائرين وآخر للمركبات.

كان سائق العربة أُلقيَ من فوق مقعده بينما الخيول مرتعبة بفعل صرخات مَن بالعربة لذلك ضاعفت سرعتها، بينما حصان (أوخنيو) الرائع كأن الله قد منحه من الذكاء ما يجعله يعى فى لحظة أنه من الضرورى التفوق على تلك الخيول الجامحة فى السرعة وخفة الحركة، كما أن الفارس قد رأى من قبل كيفية اقتلاع اللجام من بين أسنان الحصان الذى يعض يد سيده حتى لا يخضع له، فاقترب بكل سرعته من الحصان الموجود على يمينه شد لجامه بقوة ففقد الجواد توازنه، وقل هُياجه حتى توقف، و بدا مستسلماً فهدَّأه الفارس بكلماته دون أن ينفصل عنه، بينما حصانه-الذى شعر بآلام شديدة بسبب المهماز*- ظل يقفز قفزات وحشية فبالكاد استطاع الفارس تحملها، لكنه خفف من روعِه واستطاع بعد صراع عنيف أن يسيطرعلى الخيول.

اقترب الفارس من العربة وعلى الرغم من كونه غير معروف لمن بها إلا أنه كان سيد الموقف، فسأل أول من اقترب قائلاً: "هل من أحد بالداخل؟...افتح الباب، فهذه الخيول لم تعد تصلح لخدمتكم".

*جبال أبانينو: تمتد١٤٠٠ كيلو متر من شمال لجنوب إيطاليا.

*نهر أرنو: يجرى فى مدينة توسكانيا فى إيطالية.

*المهماز: قوس معدنى فى نهايته عجلة مسننة يرتديه الفارس فى كعب حذائه.

*فلورنسيا:مدينة فى وسط إيطاليا .

حينذاك فتحا الباب، ونزلا فكان أول من ظهر طفلاً ذو أربع أو خمس أعوام حانياً رأسه باكى العينين، شاحب الوجه، ومغطى بالتراب، ومن بعده سيدة تهبط، فأمسكت يد الطفل وتقدمت نحو الغريب ثم نزلت على ركبتيها قائلة:

ـ أنت فارس طيب القلب،أدين لك بحياتى من أجل إنقاذك لابنى .

ـ فأجابها الشاب رافعاً قبعته:أنا سعيد ألف مرة لكونى تمكنت

من مساعدتك، فقد كنت أجهل وجودكما داخل العربة ولكنى الآن أشكر الله كثيراً لوجودى فى طريقك وقتما كان هذا ضرورياً...لا تصعدى عربتك، فالخيول مرتعبة.

ـ فقالت: آاه لا!... حفظنا الله!، إذا رغبت أن ترافقنا يا سيدى سيكون زوجى ممتناً لك من أجلى ومن أجل ابنة" أنريكى".

بعد قليل ترجل ثمانية أو عشرة فوارسً من على ظهور جيادهم ذوى الجمال البالغ محيطين الغريب ومحملين بتلك الحماسة البلهاء التى تجعل الأمور لا تسير على ما يرام إلا لهؤلاء العاجزين عن فعل شيء للتخلص من السوقية، ردد بعضهم: "يا له من إيثار! يا لها من إرادة قوية! بينما سأل أحدهم هل سقط الحصان عندما أمسكت بلجامه؟ وهل كان سيده قتيلاً؟.

وبسماع هذة الجملة المفزعة ضغطت السيدة -بخفه جعلت (أوخنيو) يشعر بارتجاف- يدها، أجاب بعد ذلك: "أيها السادة، أنتم تبالغون كثيراً بشأن أمرٍ لو أن أى شخص غير مبالٍ كان فى مكانى لفعل نفس الشيء، كما أن جوادى من يستحق هذا المديح أكثر منى، فأنا فقط أتيحت لى الفرصة لخدمة السيدة وولدها".

ووسط مئات الكلمات التافة التى لا يُبخل بها فى مثل هذه المواقف ووسط ضحكات السعادة بسبب فرحة النجاح اقتربوا من "لا روتوندا دى لاس كالسيناس" وهناك إحدى الكتائب النمساوية تعزف الموسيقى العسكرية الرائعة"فالس دى شتاوس "المسماة " وداع مدينة جينوفا".

يتحدث (أوخنيو) لنفسة قائلاً: "يا لهذا التناقض! بجانبى الآن امرأة لازالت ترتجف لأن الموت مارٌ أمام أعينها بأجنحتة البيضاء، الآن تضحك وتحيا فى عالم آخر وكل واحد مشغولٌ بأمره ولا أحد يفكر فى الآخرين.

ـ قالت له: ربما قمت باستغلال طيبتك، فأنا حرمتك من نزهتك وصحبة أصدقائك.

ـ فأجابها الشاب : "أاااة يا سيدتى ! لقد كانت نزهتى حزينة

للغاية كما أنى وحيد فى (فلورنسيا) دون أصدقاء يحبو ما أحب، وربما أنا من يتوجب عليه الاعتذار منكِ... والآن اسمحى لى بالقيادة.

أنت حقاً طيب جداً ، لكنك سترافقنى سيراً.

ـ بكل تأكيد فالمشى جيد للصحة، والآن حاولى نسيان كل ما حدث .

ـ كله.

ـ نعم، كله

ـ هذا مستحيل.

عبر من كانوا يسيرون معهما بسرعة وسط الزحام دون إعطاء أية علامة لتوقفهم وبدأوا الافتراق عنهما فاتخذ الفارس والسيدة الطريق المؤدى إلى الجسر الحديدى المعلق الرائع الذى يبعد ستة ياردات عن نهر الأرنو، وبعد حوالى مائتى خطوة صاروا وحدهم"الفارس، السيدة، و الطفل يمسك يد والدته، ومن خلفهم الحصان يحمى ظهورهم ويتبع سيده فى هدوء.

ـ قالت السيدة:"بكم أنا مدينة لك يا سيدى؟ ، لم تكن تعلم أن هناك أحداً داخل العربة ولا أن هناك حياتان كادا ينتهيان، اااة يا سيدى! أنت لست من هذا البلد ولا من أية بلد فى كل أوربا صحيح؟ .

ـ أجابها: "لو علمت أنه عدوى لكنت فعلت الأمر نفسة وأنقذته، ولكنى لو توقعت أنه أنتى لربما لم أكن نافعاً ، لأننى كنت سأرتجف خوفاً وألقى بنفسى بتهور، وفى هذه اللحظة لأصبحنا جميعاً راقدين للأبد... فى الواقع لست أوربياً فأنا من بلد غير معروف ووحشى ولكن فية يولد الناس ويموتون بالفطرة التى منحهم الله إياها، وبقلب متناغم مع سماء الوطن الجميلة، مع الربيع الدائم فى المروج الخلابة ومع الهواء المحمل برائحة الأشياء التى لم تلمسها يد إنسان...وأنتِ أيضاً لا يبدو أنك فلورنسية، فعيناكى وبشرتك ينمان عل أنكِ من الشمال، فأهل الشمال هم أشخاص مميزون.

ـ قالت: لا تخدع نفسك يا سيدى، فأنا إنجليزية وأدعى (أستير) زوجة اللورد (ويلسون)، أتينا لنقضى فى فلورنسا ستة أشهر وسنعود إلى لندن فى مايو.

والآن هل لى بمعرفة اسمك ؟.

ـ أجاب الفارس: اسمى ! تريدين معرفة اسمى؟ ولما أخبركى به؟، فأنا أحيا فى هذا العالم مجهولاً وغداً سأرحل ولن يتذكرنى أحد تماماً كالطيور التى تشق الرياح دون أن ترسم طريقها.

الآن أنتى تعرفين الكائن الوحيد الذى يحبنى ويخدمنى كالصديق، هو جوادى فقد جمعتنا الصداقة منذ أربعة شهور، وأعطيته كثيراً من العطف، فهو يطيعنى ويتبعنى فى سرور، وكما تعلمى يا سيدتى هو شجاع و يستحق حبى له...اليوم أكثر من ذى قبل.

ـ قالت أستير: سنحاول أن نحل صداقة أخرى محل هذه، فزوجى رجلٌ ذو مشاعر نبيلة وراقية و سيعرف كيف سيجازى من أنقذ ابنه الذى هو كل عائلته، وسعادته فى الدنيا وكل عالمه، كما أنه شاب مثلك وأنا على يقين من أنكما ستتجاذبان فيما بينكما، ومن الآن فصاعداً يمكنك الاعتماد على صديقٍ آخر مخلص، ولا يتغير، فيالخورخى المسكين ! سيخر أمام قدميك عندما يعلم ما فعلته من أجل ولده...ثم هل ستحكم على بأنى امرأة ذات قلبٍ قاسٍ حتى أنى لا أستطيع أن أظهر امتنانى لك بعد إنقاذك لحياة ابنى؟ ولا أعلم، ولكنِّى يبدو لى أنى أكملت واجباتى كامرأة، وأن أية لحظة الآن ستكون مناسبة للذهاب إلى الله.

وجدت فى نبرة هذه السيدة حزن عظيم يمس القلب، وصوتها المتألم يخترق الصدر فصمت (أوخنيو) وظل يعانى فى داخله ويسمع صوتاً فى أذنه يردد قائلاً: هذه المرأة التى أنقذتها -ملاك أوهامك الجميلة- تعيسة فى حياتها ولا تهوى من قلبها، فعندما وصفت زوجها و مجدت فيه عارضةً عليك صداقته لأنه جدير بك كانت تكذب، رفعت من شأنه فقط لأنها امرأة نبيلة، وأرادت أن يكون كل من حولها صالح ونقى

تماماً مثل روحها ...فهربها.
خلال ذلك عبروا الجسر الحديدى وصولاً لبوابة أحد القصور الفلورنسية القديمة الفخمة التى لا زال يفوح منها الهواء المتغطرس لعهد "جولفس- جبلينوس"
ـ قالت أستير لولدها أنريكى :"اذهب و أخبر والدك أننى ومعى صديق فى انتظاره، فغلى الدم فى عروق الفارس بسماعه كلمة صديق وضغط بقسوة إلى حدٍ ما على يد السيدة وقال:
ـ لا أستطيع أن أكون صديقاً لزوجك يا سيدتى، لم أخدع أحداً من قبل وأنتى لا ترغبى فى إجبارى على الكذب... لا يمكننى.
ـ فأجابته : "أطمأن يا سيدى" .

انقطع ذلك الحديث الغريب بحضور رجل يبلغ الأربعين من عمره ممتلئ الجسم، طويل القامة وله عينين تشبهان عيون التماثيل ممسكاً بيد إنريكى ويبدو أنه سمع منه ما حدث.
أدرك (أوخنيو) لاحقاً أن اللورد كان واحداً من تلك الكائنات الميتة التى تعيش، تسافر، تأكل وتنام دون أدنى اهتمام أبداً بالواجبات الاجتماعية للفرد.
ـ قال ويلسون بعد إلقاء التحية المعتادة" علمت أن تلك الخيول انتهى بها الأمر بالسقوط فى قبضتك...أشكرك أيها الفارس ويسرنى أن أعرض عليك صداقتى -صداقة بار* فى إنجلترا- كما ستدخل منزلى وسيكون صحنك دائماً على مائدتى... وماذا عن هذا الحيوان الجميل الواقف وحده هناك؟". لقد نسى (أوخنيو) جواده ، فتعرضه لتلك المشاعر هذا اليوم بشكل سريع جعله يهجر رفيقه الدائم، فعندما استعاد وعيه ناداه لجانبه فأتى مثل الكلب يمد عنقه ليداعبه سيده، وحينها مسحت السيدة بمنديلها الناعم وجهه وعيناه ثم قالت:"والآن لنصعد.
ـ أجاب الفارس : إن لم تكن قلة ذوق اسمحوا لى، فأنا متعب للغاية وجسمى الضعيف قد خارت قواه وأريد أن أذهب لبيتى، فربما فى يوم آخر أوفى فرصة أخرى....
ـ فقالت أستير : أووه لا! إنه لأمر لن تخذلنى فيه: سندخل

هيا سندخل، وأمسكت يده دون أن تسمح له بأن يتفوه ولو بكلمة واحدة.

وداخل القصر لم تكن القضية فى رؤية مسكن اللورد المؤقت ولا فى صرامة هذا القصر الفلورنسى القديم، وإنما فى ذلك البذخ فى فن العمارة الموجود بكثرة فى كل مكان والذى لا يؤثر فى عيون العامة، فمن ينظر إليه للمرة الأولى يستحوذه شعورٌ بالتحفظ والوقار، فأعمدة الصالون مزينة بنقوش غائرة للنحاتة الإيطالية(ديلا روبيا)*بينما تمتلئ الجدران بلوحات (دافينشى وفراى بارتولومى) *وتغطى بستائر مصنوعة من القطيفة الفلورنسيا الغالية...

*البار: لقب يمنحه الملك لبعض النبلاء فى العصور الوسطى.

*لوكا ديلا روبيا:نحاتة إيطالية من فلورنسيا.*ليوناردو دافينشى:واحد من أشهر رسامي عصر النهضة الإيطالية.

*فراى بارتولومى دى لاس كاساس: أسقف و رسام إسبانى.

وعلى المائدة أراد اللورد معرفة تفاصيل الواقعة فتوجه بالسؤال إلى أوخنيو.

ـ قائلاً:"هلا قصصت علىَّ تفاصيل تلك الحادثة؟

ـ أجابه الغريب : آاااه!... التفاصيل بسيطة، فقد جمحت الخيول فألقت بالسائق من على مقعده، وكنت محظوظاً أن تمكنت من إيقافهم.

ـ فقالت أستير "أنت توجز جداً فى روايتك".

حينذاك بدأت بالحديث تملؤها نار الحماسة كما لو كانت تتحدث عن بطلها، واصفة المخاطر التى تعرض لها فى سبيل إنقاذه لهما وحياء الأطفال الذى أظهره، أما زوجها فلم يبدِ اهتماماً لما قالته مما جعل أوخنيو يسترجع شكوكه السابقة.

ـ ثم قال اللورد:" لابد أن أصل جوادك عربياً أو إنجليزياً؟ .

ـ أجابه: لا أعلم، لقد أشتريته بمبلغ ضئيل كحصان بسيط من ماريسماس.

ـ اللورد: "فى انجلترا يساوى مائتي جنيه".

ـ الفارس: "لن أبيعه ولو بألف".
ـ اللورد: لدى فرسة تدعى جينى لن أبيعها أيضاً بأى ثمن، كم هى حيوان رائع ونبيل !، جعلتنى أخرج منتصراً فى ثلاث سباقات لثلاث أعوام متتالية، كما أنى أحتفظ بما تُوجت به بفخر... كانت ثلاثة أيام رائعة فى حياتى.

انتهى الطعامُ وأراد ويلسون أن يكمل عاداتِ آبائه التقليدية ويدعو ضيفه ليذهب معه إلى الغابة، فحينما أُتيحت الفرصة أمام الفارس اعتذر وأنهى حديثه بهذه الكلمات : يا سيدى اللورد، لست من بلد يختلف فيه أجناس البشر، كما أنى دائماً أفكرأنى مساوياً لكل الأشخاص، وعلى الرغم من أن صفاتى التى أجهلها والصدفة فى بعض الأحيان جرفانى فى العديد من المرات إلى المجتمع المسمى فى أوربا مجتمع العظماء، الدوقات والنبلاء إلا أننى لم أستطع أبداً السيطرة على طبيعتى المتحررة متقلبة الأطوار، فإذا كنت ستتحمل مخالطتى أرجوك أن لا تمعن النظر فى أخطائى العديدة المختلفة عن عادات المجتمع"، وبمجرد أن أنهى كلماته نهض من على الطاولة وكذلك اللورد، أما (أستير) فقد راقبت -على الأرجح- ما دار بين الرجلين ثم اقتربت من الفارس بعينيها الساحرتين تترجاه ليخبرها اسمه و عنوانه، فقال: "أدعى (أوخنيو ساجرى) يا سيدتى، و أقيم فى فندق "جورك".

وقف (أنريكى) بجانب الفارس يداعب أصابعه ثم قال له بلهجة فرنسية: "قبلنى يا صديقى" فرفعه و ضمه على صدره ثم قبله عدة مرات فى وجه ورأسه.
ـ قالت أستير: "أطلب منه أن يأتى غداً ويأكل معك".
ـ فرد الفارس: معه! نعم ولكن فى منزلى ،غرفة المسافر بدون ألقاب.
ـ قالت: "سيكون، ولكن بشرط أن تأتى و تصحبه".
ـ فقال الطفل: نعم ياسيدى العزيز ستصحبنى إلى "كالساسيناس".

ـ أوخنيو: اتفقنا، سأكون هنا الثالثة والنصف ظهراً، آخذه لنأكل معاً فى بيتى ثم نذهب إلى هناك.
بعدما قال المسافر ذلك غادر المنزل.

- II -

كانت أستير أول امرأة فى فلورنسا تتأثر بروح صديقنا بطبيعتها الرقيقة الناعمة من بين كل سيدات إيطاليا التى تملأ الحرارة نظراتهن، حركاتهن و كل شئ فيهن، و لكنها بدت فى عيون المسافر أجمل و أنقى من كل هؤلاء الظاهرات فى صورة جذابة تثير الشهوة، فقد كانت صديقة نزهاته المنفردة، تقابلوا مئات المرات أسفل أشجار (كالساسيناس) الكئيبة،فى متاهة مدينة "فيازولى"،وفوق مرتفعات "سان منياتو" الشهيرة متبادلين نظرة تحمل وداعاً أبدياً سعى للتحقق من اسمها و حالتها، ولكن كان عبثاً، فقد كان هناك لغزاً لا يخُترق يحيط بتلك المرأة، شعر أوخنيو داخله بولادة واحدة من تلك العواطف التى ظن أنها خمدت للأبد، وذات يوم رآها فى المسرح وهناك حس أن قلبه يبكى على غناء أوبرا "لويسا ميلر"* المؤداة بصوت ألبرتينى التى ظل يعانى معها، فقد احتجزه قيد مغناطيسى داخل كآبة وعبثاً حاول تحطيمه، فكانت محاولاته الدائمة تعذب قلبه المجروح من قِبل أحزان عديدة والذى يخاف من أن تتضخم أحزانه، ولكن كيف لك أن تفكر وإرادة الله تربطك بالمحن؟ و كيف تغلق فمك ولا تتفوه بالأنين الذى يبوح به القلب مدمراً ما بداخلة؟... ربما عن طريق التحكم بمكابح الحياة وجحد مرتكب الظلم.
فى ليلة شتتت المشاعر أفكاره، فقد كانت واحدة من الليالى العاصفة التى بها بدا فراشه كالكفن، والهدوء خيم على المكان كهدوء المقابر الصادر منها عواء الكلاب الضالة، كل هذا أنهك جسده بطريقه جعلت من المستحيل أن يغادر غرفته ليوفى

بوعده مع (أستير) وولدها، ولكن الأدب يُلزِمه أن يبرر لهما السبب، فكتب لها البطاقة التالية:

"منعنى عائق صحى خفيف من أن أوفى بوعدى لولدك، كما أن الهدوء الحالى يجعل غداً مناسباً أكثر".

فلورنسيا، ١٨أبريل ١٨٥١

أوخنيو ساجرى.

*لويسا ميلر: أوبرا غنائية لجوزيف بيردى مكونة من ثلاثة فصول

بعد نصف ساعة، حضر إلى غرفته خادم السيدة ويلسون قائلاً أن سيدته تطلب إذناً لرؤيته، فلو كان شعاع فى وسط المحيط لكان واقعة أخف على الفارس الذى دون أن يدرك ما يقوله تعجب صائحاً وقال: "أنتظرها" وأسرع نحو الباب، وقدسمع حكه فستان حريرى متدلى على الأرض و خطى خفيفة متعجلة وبعد ثانية وصلت أستير إلى غرفة المسافر الفارغة من أى متاع، ولكنها المليئة بروحه و حبه.

ـ قالت: لقد أتيتك به وقد أعطته ولدها، فهو يتوجب علية مرافقة المريض، كما أننى يسعدنى أن يبدأ بتسديد دينه بشكل ما.

ـ أجابها : آاااة يا سيدتى ! أنا حقاً دائن محظوظ.

ـ قالت: لونك شاحب فهل استشرت طبيباً؟ ربما لا يستطيع أن يعالجك جيداً فى هذا المكان، ففى هذه الحالات تعد الفنادق صغيرة الشأن كالسجون، فلو منحتنى الجرأة، لقدَّمت غرفتى لك.

ـ قال:" لا أبداً يا سيدتى! أنا فى حال أفضل الآن، فمرضى هذا قديم كما أن الجو اليوم يناسبنى تماماً، فلنذهب إلى (كالساسيناس) أنريكى! خيولى لا تجمح، وسأقود لكما ببطء... آاااه كم هى جميلة حياة الأطفال !هكذا يجب أن نكون، لنحقق إرادة الله فى الأرض.

ـ قالت: أنت تغالى فى الأمور، كما أن شخصيتك المعتادة ليست

كما تبدو الآن.

ـ قال: "أسف يا سيدتى، فأنا غير سعيد، غير أن اليائسين لا يمكن أن يكون لديهم شخصية ثابتة، فمنذ عشر دقائق رأيتينى أضحك والآن تمر بعقلى أفكار كئيبة تثير أعصابى، أعتذر منكى ألف مرة... !

أنريكى يا صديقى هناك يوجد سوطى، لوحاتى و تماثيلى: أكسر ، حطم ،اصنع القليل من الجلبة وعاقب هذه الوحشة التى تجعلنى أتنفس الحزن...الأطفال !، كم هم سعداء !

بدا الطفل وكأنه لم يكن ينتظر سوى الأذن ليترامى هائجاً فوق كل ما يقع تحت يده، ووالدته تحاول إيقافه ولكن هباءاً نظر لها (أوخنيو) نظرة أخافتها، وبنبرة تحمل الحقيقة والشجن قال:

"ينبغى عليَ الرحيل من فلورنسيا يا أستير ،لقد اعتزمت البقاء مثلك حتى مايو القادم، فقد خمنت ميعاد رحيلك وكنت سأبحث عنكِ فى كل أوربا، وعندما يتيح لى الحظ وأجدك فإن مكانك سيكون هو نهاية مطافى وحياتى فى فلورنسيا، وسأواصل مسيراتك، لكن الله قدر أن تسير الأمور على نحو آخر، فالآن أصبح من المستحيل رؤيتك، الحديث معكِ أو حتى أن أقول لكى أننى مجنون محكوم على أن أبكى انسانة هى روحى ، وأن حظى سيغمركِ بالألم والبكاء الدائم... نعم سأرحل حاملاً معى هذة الفاجعة التى ربما ستفتح قبران وليس واحداً".

ـ قالت أستير: "أوخنيو لست وحدك الشقى، فعلى الأرض هناك العديد من الأشخاص يعانون!... غداً سنذهب سوياً إلى "براتو"، غداً استجمع عزيمتك، أطلب منك يوماً واحد...لا... بل ساعات قليلة.

ـ قال الشاب: آاه ! أعلم تمام العلم أن السعادة ليست إرثاً لبنى البشر، ولكن هناك أحزان إذا اجتمعت أصبحت لا تحتمل، كما أن الإنسان إذا ظل صامتاً ومنعزلاً لكان هذا كفيلاً بشقائه... هذه النزهة لن تكون جيدة للجميع، فأنتى ما زالتى لا تعرفيننى، أما أنا فأعرف من أى طبقة أنتى، وما هى مكانتك، والناس ترى فى

هذه الأشياء قيمة عالية، ففى رأيى أنتى وجدتى أنى شخص خشن، واحد من تلك المخلوقات التى تحمل خشونة الطبيعة البدائية فأحببتينى... نعم أحببتينى ولذلك أشعر بالأسف فى داخلى، فهذا الحب سيحملنا للموت لو لم نتجنب الخزى الذى سنراه فى عيون هذا العالم الزائف الأنانى.

ـ قالت: على رغم من أنك الآن تعرف مكانتى وألقابى ولكنك مازلت لا تعرفنى... غداً ستفهم هذه المرأة البسيطة التى ربما لم تفهمها حتى الآن سأكون على بابك فى الحادية عشرة صباحاً، ولأننى يتوجب على ذلك فأنا من سيدعوك، كما أنى بجانبك لا أشعر بالخوف، وسنذهب بعربة الرحلات، وسيقودنا أربع خيول أقوياء بسرعة كبيرة، سندرس معاً هذه الأماكن، أظن أن هناك أماكن هامة، فتاريخ إيطاليا مُضرج بالدماء ولكنه ملئ بالأحداث العظيمة والأشباح المرعبة ستحدثنى عن هذه الأشياء وسأتعلم كيف أحكم عليك.

قال أوخنيو:" سنفعل ما تشائين والله سيقضى بالبقية، والآن هلا تتركينى؟ فحالتى أفضل وأريد أن أهتم بهذا الطفل المسكين الذى لا يعلم أن الرجل الذى أنقذه من الموت غداً سيكون جلاده أو أسوأ- الذى سيشهر باسمه.

ـ قالت:" أنت تخيفنى يا صديقى".

ـ قال:آاااة يا أستيرا! رغم أنكِ لا تعرفى شيئاً عن حياتى أو شخصيتى، ولكن يمكننى القول أننى أحمل قلباً ملائكياً.

ـ قالت:"يا صديقى لا تحدثنى بهذه الطريقة،ألا ترى أننى أيضاً تعيسة ؟.

ـ كفى يا سيدتى، نطقتى للتو كلمة مكروهة، أرجوكى أن نفترق الآن.

ولكن سنتقابل فى كالساسيناس.

ـ نعم... فى نفس المكان الذى رأيتك فيه لأول مرة، فقدكنتِ تشبهى كليوباترا.

ـ مجاملة! لم أكن أنتظرها وداعاً... أقصد إلى اللقاء.

ظل الطفل يخرب فى الغرفة حتى صارت تشبة سفينة نوح، بينما الفارس يستغل أعماله ليهئ نفسه للذهاب إلى براتو، وفجأة أستعاد وعيه وفكر فى غرابة تصرفاته فحدث نفسه قائلاً:" هذه المرأة المسكينة ستذرف دموعاً كثيرة بسببى".

- III -

ليس هناك نمط معروف لليالى فلورنسيا الجميلة، فهذا الوادى المحاط بجبال صغيرة مبعثرة على القمم وعلى المنحدرات الخطيرة التى تقع بها الحوادث الأكثر تهوراًعلى وجه الأرض ملئ بالمبانى التى صممت بطريقة مناسبة لراحة العينين ،تحجز نور الشمس فتجعلك ترى غابات وشوارع هذة المدينة الخيالية كأنك ترى أبواب الفردوس مفتوحة قليلاً أمامك وتتنفس أجواء نعيمها.

سيكون من الضرورى أن لا يمتلك الإنسان قلباً داخله، حتى لا يشعر بالروح التى منحه الله إياها ولا بانبساطات القلب التى لا دخل له فيها، وضرورياً أن تطلب الروح المجردة من صفاتها التى لاغنى عنها فى الموت ما لا تستطيع فعله، وما لا ينبغى إعطائه، حتى لا تشعر بالانتقال لعالم آخر، فمثلاً ذكريات فترة الصبا السعيدة، العواطف المفضلة و الحياة الحميمية السرية التى يحفظها كل إنسان كوديعة غالية فى حياته .ومن المنطقى أن يشعر الإنسان داخله بالسرور الذى منحه الله إياه إذا ابتسمت الطبيعة وكانت سعيدة!...

ولدت الثعابين السامة، الحيوانات المفترسة آكلة اللحوم، الجبابرة الأسوأ من ذلك: المشاعر التى تغتال البشر والمصائب

التى تدعو الإنسان للإنتقام و الكفر وسط الضوء الخافت للسماء المزينة بالنجوم، ضوء القمر الصافى، الشمس التى تجلى فيها اسم الله، فانظر لعباءة هذه السماء المرصعة بالنجوم وركز بصيرتك على الشمس التى عبدها "الأينكاس" على مر قرون مختلفة، ثم اخفض نظرك لترى ما يحدث فى إيطاليا المعروفة باسم حديقة الأرض والآن ماذا ترى؟ أقوياء ممسكين بلجام التعاسة الموجودة لتحط من شأن الإنسان، رجال يسموا بالنبلاء على الرغم من استغلالهم الجائر لإخوانهم، حكماء يفرضون الضرائب ليحققوا مكاسب شخصية، والأسوأ من ذلك يستنفذون كدح الشعوب من أجل رفاهية بلهاء، بالإضافة إلى رجال عسكرين يرفعون السيف فى وجه المواطنين ليواجهوهم، ولكن حينما تضع الإرادة الإلهية فى الحياة شرارة الذكاء النابغ يظهر كهنة يعبدون الله على الملأ، ويعملون كمراقبين لهؤلاء الظالمين لشعوبهم، شباب شرفاء ولكنهم كالشجيرات التى تخنقها سموم الظلم التى تتقطر قطرة قطرة، ويوم بعد يوم على بذور الحرية مجبرين على أن يشحذوا مكاناً فى المجهول يلمع فيه الذكاء، وكل هذا يوجد وسط الزهور ذو العطر الأنقى على الإطلاق، فى الحقول أسفل هذه السماء التى تنشر الضحكات فى الحياة، وبجانب الآثار التى تصرخ من الانحطاط الحالى، ولكنها مُقدرة من قِبل أبناء العظماء، وهكذا تخلد هذه السلسة من جيل إلى جيل ومن قرن إلى قرن فتظل الطبيعة تدس تحت عباءة ضيائها المزيد من الألم ،الشقاء والشر.

قال (أوخنيو) للصبى المستمر فى معركته: "أنريكى فلنذهب إلى كالساسيناس... دعك من هذه الرسوم الهزلية فالرسم الهزلى حقاً وسيلة رائعة! واترك هذه الصور وتعالى معى".ثم دخلا حنطوراً وسارا مفتونين بجمال الظهيرة، وبعد ثمانى دقائق وصلا هناك.

تتجول أستير ببطئ شديد فى نفس الطريق الذى هاجت فيه خيولها، وخادمها بالكاد عثر على مقعد السائق فى العربة،

قال: "سيدتى، سأنتظرك حتى تأمرينى فأستعد".
وصل الفارس والطفل سريعاً، وبعد دقيقتين احتضن أوخنيو أستير وقال لها:
ـ ياللعذوبة و التناغم الموجودان فى كل ما يحيط بنا، أنظرى لخضرة هذه الأشجار وزرقة هذه السماء...تأملى كيف يجرى أرنو ومياه تعكس صورة شجرة الصنوبر تلك المليئة بالحياة، فكل ما لا يتدخل فيه الإنسان يكون سعيداً، فالأرض تظل تعانى أيام الشتاء المؤلم ولكنها تستعيد سعادتها من جديد فى الربيع المُستديم، ففيها أشعر بسماع ضحكاتها فى كل بستان وسماع الأغانى الصادرة من كل طائر يشق الرياح، أما الإنسان فربيعه لا يكن إلا فى ابتسامة عابرة تمر فى حياته كالسحابة الوحيدة.
ـ قالت أستير:" آااة يا أوخنيو! دائماً تعيس ساخط على البشر، دعك من الحديث عنهم، فأنا يعجبنى جداً سماعك تصف الطبيعة، والأشجار والسماء، لقد قلت للتو أشياءاً جميلة لدرجة أنى تخيلت رؤية لوحة خلابة.
ـ أجابها: أنتى تحكمى على بالسوء يا أستير، وغداً ستعلمى أنه لدى الحق فى التذمر من البشر وهذا ليس بسبب حالة واحدة لقد ترفعت عن القيل والقال ومضيت فى طريقى، فالحقيقة خطيرة وعادةً ما تسبب العداوة التى لا تهدئ وخاصة فى موطنى حيث تسيطرالأهواء بشكل مستبد.

أردت القتال والخروج منتصراً، فكما تعلمى النصر دائما لدية أسباب، ولكن عندما تعرفى حياتى العامة سيكون حمكك على جيداً، لكنى أخشى بعد إنصاتك لى أن لا تمس كلماتى قلبك، وأظل أسمع صداها و ذلك لأننى أغار حتى من هذه الألوهية المتوحدة، أحببتينى مع كل آلامى الخاصة وخطوب الدهر فى حياتى التى تظهر أمام الناس هادئة وسعيدة ولكنها فى الواقع جحيماً، فإذا بادلتك نفس شعور الحب الذى لا يعرف طبقات أوظروف أو منافع سأشعر بالأسف داخلى، أنتم يا أستير أناس معدلة لتناسب مجتمع له عدة أوجه،لا تعلمون

كيف الحب يكون، كيف يحب الثور فى المروج البرية و النمور فى الغابات المترامية و القرش فى وسط البحر، وحاجتكم إلى الترف المهلك قضت عليكم، فكان مقياس المحبة لديكم هو الأملاك والثروات وإذا تحرك القلب قال الآباء عنها نزوة وعاد القناع من جديد ليغطى الوجه، ولذلك فهذه المجتمعات التى فيها الأنانية والكذب هما القاعدة الأساسية لن يصلوا أبداً إلى تحقيق ولو فكرة واحدة لنشر السعادة بين الناس .

تجولى فى جميع أنحاء أوربا و اذكرى لى اسم قرية واحدة سعيدة.

ـ لقد أنصت إليك أوخنيو.

ـ أعتذر منكى أستير، فمنذ أربعة أشهر وقلبى مغلق على هذه الكلمات وكنت بحاجة أن أقولها، و أنتى صديقتى فهل تحدثت بطيش؟.

ـ أوخنيو !.

اسمعينى: "طفت العديد من القرى على سطح الأرض، ودرست أنماط العديد من المجتمعات، صرت ملماً ببحور القرآن وملائكة المسيحية، توغلت مع البروتستانت، عبدت الأصنام مع الصينيين...وماذا وجدت فى كل هذا؟: أنظمة -إلى حداً ما- مبتذلة وموضوعة عمداً لتدمر الإنسان من الداخل، وبالطبع لا يمكن التصريح بهذا الحديث لكل الناس لأنهم سيدعونك بالفاسد الزنديق الملحد، وإنسان بلا مبادئ، ولكن توجب علىَّ أن أوضح لكى أفكارى بأكملها".

أنظرى إلى البابا-ممثل وخليفة القديس بطرس- الذى مات على الصليب من أجل خلاص البشرية، أحدثكى عن قائد الاتجاهات الأكثر قدسية والأرفع شأناً فى اثنين من ثلثى العالم، من هنا ينبغى أن يولد قانون يوحد الأخلاق ويكون المبدأ الذى يخضع كل القوى ويقودها نحو الصالح العام، والسعادة فى كل أنحاء العالم، فالكاثولوكية تحتضر وتموت مُغتالة من قبل ممثليها، فقد ذهب زمان الإيمان الهمجى الأعمى إلى الأبد، وأتباع القديس يتفوهون كل يوم بإهانات ضد العقل البشرى الذى لا

يعتقد أحدٌ فى سلطته وحكمه.

كان عامة الشعب المحبين للصيت والغموض هم أساس القوة الهائلة للبابوية، ولكن آمالهم خابت بشكل كامل وآخر ما فعله البابا كان استنجاداً بالجيوش الأجنبية التى دخلّت فى حروب دامية، وأعادت له قصره. فبرهن على أن تدخل المخابرات فى حكومة المؤمنين وفى دعم الكنيسة كان وهماً أو أكذوبة سياسية مثل كثير من المستخدم لاستغلال الشعوب.

ـ قالت أستير: أنا بروتستانتينة يا أوخنيو.

ـ قال:تهانىَ فهى خطوة إلى الأمام نحو تبسيط النظام، ولكنكم لم تكملوا ثورتكم و ستموت البُروتستانتينية أيضاً، لأن أسباباً أخرى خربتها، بينما أنتِ استمرى فى معتقدك بحماسة وضمير لأن الإيمان -هذا الشعور الداخلى- يحوى صلاح الدين بأكمله والفضيلة أيضاً.

ـ أنت قديس .

ـ مسكينة يا أستير...

ثم مالت تلك الإنسانة الرائعة على ذراع صديقنا، وكأن النعيم يغطيهما بعباءته المرصعة بالنجوم، وكأن الأرض هى هذا الغلاف الأزرق و الطبيعة بأكملها هى الجنة على الأرض. أما عن أولئك الذين لا يروا فى حب المرأة سوى تعبير عن رغبة جسدية، لا يمكن أن يدركوا كيف تسلب الروح عندما تأتى روح أخرى بسيطة على شفاة امرأة تعشقها لتهمس بالأحاسيس اللطيفة الهائجة داخل الصدر، إنهم يجهلون أن كل الاستحسان وكل الكلمات التى تهرب من على الفم بسبب السعادة هى فى قبلة، قبلة ملائكية لا عيب فيها ولا خوف، يجهلون أن الوجود الحالى لكل إنسان يتمثل فى شيئين :الأول يعكس الألوهية الخالدة، والثانى يزحف فى وحل هذه الحياة، لذلك فالبشرهم مخلوقات غير كاملة ومليئة بالعيوب.

ـ قال أوخنيو لأستير: دعينا من الشعوب و لنتحدث عن أنفسنا، لم نتعرف بالأمس، فإذا بحثنا فى ذاكرتنا سنجد دون عناء ذكرى ما

ليست بعيدة ما زالت ملامحها باقية حتى اليوم، نعم اليوم مرت ثمانية أيام من يوم أن رأيتك فى (سان منياتو) وحيدة كلياً وسط أنقاض مرعليها قرون حيث شعرت بوجود ملك الموت، رأيتك تفحصى واحداً من الجدارن التى خدشتها يد الزمان من كل اتجاه،وظننتك -جدياً- تبحثين عن شئ ما.

ـ قالت: نعم يا صديقى أردت العثور على أى أثر للرسومات الجصية القديمة التى يُثنى عليها، ولكن لم يبقَ منها أى أثر.

ـ قال: كان بحثى أبسط من ذلك هل تعلمى أن برج (سان منياتو) هو المكان الذى أستُخدم فى الدفاع عن مدينة فلورنسيا ضد هجمات جيش (كارلوس الخامس) متحداً مع جيش (سليمنت السابع) الذى كان يسعى لضمها تحت سلطة حفيده"لورينز دى ميديشى"*؟، فقررت أن أصعد البرج وأضع أقدامى محل ما وضعها الفنان العظيم والجليل دائماً"ميجيل أنخيل"* فقد كان صاحب التمثال الشهير (ديفيد)* يقاتل هناك كجندى بسيط من أجل حرية واستقلال وطنه.

ـ آاه... حارب ميجيل أنخيل أيضاً؟

أتعتقدى يا صديقتى من يكون قد وضع تلك التجاعيد فوق جبهة ديفيد لتعبر عن الحرب، النصر والبطولة رغم أنه لم يشعربكل هذه المشاعر التى رسمها؟!، هناك مَثل شعبى فى بلدى يمكن أن يطبق بشكل جيد على الفنون الجميلة "لا أحد يعطى ما لا يملك"، فعلى صعيد النحت: كان ميجيل أنخيل ذو روح عالية وقلب سام جاءت أعماله على هذا النحو تتميز بالذوق الرفيع بين أعَمال الآخرين. أما "بأتشو"* كان رجلاً فقيراً وذو شخصية خسيسة ، فظهر هذا فى نحته للشخصية الموجودة بجانب ديفيد المسماة "هرقل"، والتى لا يُعرف إذا كانت تمثل شخصاً من جنسنا أم حيواناً من نوع غير معروف، كذلك مجموعته النحتية "لاوكون"* -التى تمثل تلك الأسطورة المؤثرة- تظهر ككومة من مشاعر الغضب، بينما إذا نظرت إلى"الأدنيوس" لميجيل أنخيل لدعاكِ للبكاء، فهو يعبر عن واقع

هذه الحالة ممزوجاً بكمال العمل، أما الرسم فقد أسس"رفائيل" نوعاً يسمى الجمال الإلهى، فروحه الطفولية مالت إلى الألوهية وعندما أراد أن يرينا تجربة حبه الدنيوى ،خلف للأجيال التالية لوحه"فورنارينا" التى تمثل تصويراً رائعاً لعملية تغير الشكل ...ألم تشاهديها؟، فى رأيى هى ليست نقلاً لملامح إنسانة بقدر ماهى انعكاس لمتعة رؤيتها، أحبت(فورنارينا) مفهوم الصبر على المكروه بجنون، لذلك كان(لرافائيل) الحق فى أن يحبها كثيراً، وقد ظهرت فى اللوحة الشهوة فى أحر صورها، كما وضُعت فيكى يا أستر كل الصفات الرائعة، فأنتى ملاك أكثر من كونك امرأة، كما تكشف سماتك الجسدية عن روحك وأنا أعشق الروح عندما لا تهوى الجسد كالذئاب.

كيف تكون أنت غريب أطوار أوخنيو؟.

دائماً ما يكون الإعجاب شئ جيدا، كما تعلمى تبعتك كالطفل الذى يتبع ما يسكن قلبه كما لو كان اندفاعاً من روحى المربوطة بحياتى التى رأيتيها فى أوقات تعيسة، يسيطرالحزن فيها على روحى دون رغبتى، وأوقاتاً أخرى أضحك مع ولدك وأكون فى أحسن حال، فقدكانت حياتى أكثر بساطة من ذى قبل.

عندما تقابلنا فى المسرح لم أستطع أن أحول نظرى عن مقصورتك، وحين قابلت نظراتى وجه زوجك الحيوانى توجب على أن أوقف يدى من البحث عن مقبض خنجرى، كان هذا واحداً من الانفعالات الجنونية التى سيطرت على بقوة شخصية أقوى مما منحنى الله إياها، والآن بما أنكِ بجانبى ،أتنفس الهواء الذى تتنفسيه ، واقرأ فى نظراتك الحكايات الخاصة بروحك، فلا ينقصنى شئ آخر فى هذا العالم الذى لا أريد منه شئ .كما أننى لن أتفوه أبداً بشئ يسئ إلى الذات الإلهية، ولكنى أتوقع اقتراب عواصف قاسية من الضرورى تجنبها.

لم أولد لأتمتع و لوبقدر بسيط من السعادة التى يتنعم فيها أشقى رجل يعيش فى الجبل دون أن يعلم، فأنا قد حكم على نصيبى أن أحيا مع ذكريات ممزقة وفراق يقتل... أنصتى إلى جيداً

وبينما كنت صغيراً قذفتنى الضغائن السياسية فى وطنى حيث كنت محبوباً بشدة بين الناس، فصارعت مع الأفكار التى تشغل من هم ذوو سلطة عالية في البلد التى لجأت بها، وعرفت كيف أشق طريقاً وأصبح رجلاً يُحترم بين الناس، فقد كان ذكائى المحدود الذى أضافته لى الطبيعة وسيلتى الوحيدة للنجاح، كما جرفتنى عاطفة من تلك العواطف الغير معروفة للناس هنا فى إيطاليا، فارتبطت بأمرأة كانت ملاكاً فى جمالها، فارقت الحياة وأنا فى الحادية والعشرين من عمرى، تاركة لى والدين أهتمت أختها بهما وربتهما، ولكنها فعلت ذلك لها وليس لى،فأنا لا يمكننى العيش بجانبها فى عالم الثروة فيه شئ هام للغاية وأنا رجل فقير.

غداً ستنفذ مواردى وسيتوجب على العودة إلى جنوب أمريكا، حيث تنتظرنى آلام لا تُحصى، فقد وضعتنى نكبات الحظ السئ فى هذا الحال دون أن أعرف حتى الآن ماذا كان ذنب أفكارى وتصرفاتى.

ـ قالت أستير: هكذا أحترمك تختفى هذة المصائب عندما يأمل الإنسان الشقى فى أن الأمور ستهدأ،لا يمكننك أن تصبح ضحية لأسباب تافة و بسيطة، كما أنى قرأت فى طالعك أن قريباً ستختفى هذه السحابة السوداء التى تخبىء المستقبل وسترى أن الحظ يُخفى لك المزيد من السعادة.

ـ ياااا ! لا أتوقع ذلك.

ـ بل توقع...فالأمل هو عزاء الصالحين.

– يأست من كل شئ حتى من نفسى، لقد فكرت يا أستير أن رحلتى إلى إيطاليا ستكون الطريق إلى هلاكى ولذلك قمت بها، وقلت لنفسى وأنا بين أنقاض أمة عظيمة: "حسناً يمكننى الآن أن أنهى حياة هى بالفعل هالكة".ولكنكِ ظهرتِ فى طريقى و عادت تتملكنى الرغبة فى البقاء.آاااه! دعينا نستغل هذا الوقت الذى لا زال يُسمع فيه صوت العقل ونبعد للأبد، وهكذا سيكتمل مصير كلانا دون تأنيب الضمير الذى يُحزن.

ـ ألا تؤمن بالله يا أوخنيو؟.
ـ يا صديقتى، أؤمن به قبل كل شئ .
ـ ألا تعتقد أن وجودك فى هذا المكان عندما جمحت خيولى كان مُقدر من الله؟.
ـ ربما.
ـ إذاً لا تهرب منى... ودع إرادة الله تكتمل.
*ليورينزو دى ميديشى: حاكم مدينة فلورنسيا فى عصر النهضة،فيلسوف، شاعرو راعى للفنون.
*ميجيل أنخيل: مهندس، نحات ورسام أيطالى فى عصر النهضة.
*ديفيد:تمثال من الرخام الأبيض منحوت بواسطة ديفيد أنخيل، يمثل الملك ديفيد بيبليكو.
*بأتشو باندينالى: نحات ورسام من فلورنسيا.
*لاوكون: تمثال تذكارى ضخم من المرمر، يوجود حالياً فى متحف الفاتيكان فى روما.
*رفائيل: مهندس معمارى ورسام أيطالى فى عصر النهضة.
*فورنارينا: لوحة لصورة امرأة شابة للرسام الأيطالى رفائيل.

- IV -

سار أصدقائنا ساعتين كاملتين دون أن يلاحظا سيرهما فى المكان ذاته ،غير مكترثان لكل ما يدور حولهما. خرج أهل فلورنسيا فى جموع ليتنفسوا الهواء المفعم بالحياة،كانوا مجموعات ذات ماهيات شتى، تختلف هيئاتهم وأعمارهم: فرسان فوق خيول إنجليزية نبيلة، فارسات أنيقات، ومجريين من ماريسماس. كذلك العربات كانت ذات أذواق مختلفة، وعلى الرغم من الضجة الهائلة التى ترج المكان، إلا أنهما كانا شاردان فى عالم الأوهام.
ـ أجابها : حسناً أستير ،الخير فيما يريد الله، لن أرحل... وسنبدأ من الأن بلعب هذا الدور فى المسرحية التى لم ألعبها أبداً

من قبل، أنتى امرأة متزوجة و لديكِ ولد وسمعة لا يجب أن تخسريها، و سأحتقر نفسى لو فى يوم أخجلكى افتراء الناس و نميمتهم بذنبى، حينها سأعلم أنى ملعون وسأكفر بخالق هذا الكون.

ـ أوخنيو!!!.

ـ آاااه ! لن يمكنك إدراك حجم التعاسة الموجودة لدى الشعوب التى سُلِب منها العيش بحريتها، فأنتى معتادة على رؤية مجتمع المدنية السامى لذلك تعتقدى أن كل شخص ينشغل فقط بأموره وشوؤنه الشخصية، مخدوعة يا أستير! ،ففى فلورنسيا لازال الناس يجهلون أن أسرار البيوت بل والأكثر من ذلك خفايا القلوب هم ملكية خاصة لا يمكن انتهاكها، فالجميع هنا يهتم بأمور الآخرين، ولذلك تتردد سمعة أحدهم الراسخة جيداً وصيته الرنان على أفواه آلاف الأشخاص التى يجب أن تصمت للأبد، فهم يخدمون فقط أولئك الذين يعيشون داخل الأسوار ليمجدوا فى أسمائهم وسمعتهم، ولذلك ستكون نزهتنا حول تخمين الكلمات التى تتردد فى الأروقة، والتى غالباً ما تؤدى إلى الموت أو جلب العار لعائلة بريئة، كما أنهم لا يمكنهم الانشغال بقضايا الوطن، فينتهى بهم الأمر فى السجون أو المنفى، ولذلك يضعوا سمومهم فى سمعة إنسان مما يؤدى إلى تشويه اسمه أو تدمير عائلة بأكملها.

من الطبيعى أن يُولد الإنسان بروح منطلقة مشاغبة، ونشاطها يمثل ضرورة لا غنى عنها، ولكن الفلورنسى يحب دائماً أن يجد شيئاً ينهش فيه، فهو يصعب عليه أن يكُف عن الثرثرة، أو يُصمِت فمه ،بالإضافة إلى أنه لا يستطيع أن يطلق غيظه على الحكومة، أما عن الأشخاص هواة التجسس على الآخرين، تجدينهم متواجدين فى كل مكان ليمزقوا فى سمعة شخص ما كما لو كان هذا واجباً طبيعياً عليهم.

بالطبع أنتِ لا تعلمين شيئاً عن هذا يا أستير، فالإنجليز هم أنفسهم فى كل مكان وأينما يعيشون يظلون محتفظين بالعادات

البريطانية، أما أنا فنشأتى ورحلاتى المتعددة جعلت منى شخصاً فضولى، فقد درست عادات هذا المجتمع وعدلت من بغضى لتشويهات بشعة، وسترين أن أول ما سيزعجنا هو القيل والقال...آاااه! لو علم الناس أننى إلتقيت بكِ فى أماكن أخرى قبل حادثة العربة، لتغيرت نظرتهم إليك من السيدة ويلسون إلى عشيقة الأمريكى، فهذا هو العالم الذى ترينه سعيداً راضياً عن نفسه .

ـ وماذا أفعل يا أوخنيو إن كان هذا هو حال ذلك المجتمع؟.

ـ تصدقينى ياأستير... أليس كذلك؟ حسناً سنتائق مثلهم ونخفى بيننا هذا الشعور الرائع الذى يجمعنا فى رحلة براتو التى سيعلم بها الناس جميعاً سنذهب إلى "قصر بيتى"* حيث لن نجد سوى فنانين قليلين ينسخون لوحات يستصعب نسخها تماماً مثل أشعار(دينتى وشيلر) التى يصعُب نقلها، هم لا يشكلوا جزءاً من المجتمع العصرى لأنهم يفتقرون إلى المال وإلى الألقاب، فالفنان الإيطالى يعيش لعمله فى عزلة، فأنت إذا مررتى أمام لوحة(مادونا لرفائيل) لربما ترك الفنان الذى ينسخها فرشاته لأنه برؤيتك سيظن أنه ينقل نسخه.

ـ أشكرك أوخنيو... سأفعل ما تريد وسأكون غداً فى الظهيرة عند قصر بيتى الذى لازلت أجهله مثل كل مفاتن هذا البلد، فزوجى لا يهوى الفن، وأنا لا أجرؤ على الذهاب بمفردى، أما الآن ستكون أنت مرشدى، سندرس المدينة سوياً قبل أن نتجول فى الحقول، فإحدى كلماتك أوضحت لى أننى سأفهم قريباً سر هذا الإعجاب العالمى بالمعارض الفلورنسية، ثم سنزور المعابد، المتاحف والمكتبات، هل تضحك يا أوخنيو!؟ أنا دائمة القراءة، وتاريخ بلدى محفورٌ بذاكرتى... أعرف (شكسبير،بيرون،شيردان*)التعيس الرائع (أروند) والجليل (كالابيرا).

ـ آاااه! يكفى أستير، أنا أصدقكِ، وهل تعرفى شيئاً عن الأدب الأيطالى؟...دانتى* على سبيل المثال؟.

ـ لا، فقد قرأت فى صغرى فى أحد أعمال اللورد (تشيسترفيلد) أن دانتى لا يستحق معاناة فهمه.

ـلا تصدقى رأى هذا اللورد، فدانتى هو مخلوق كامل وضعه الله بين البشر، لقد أخذ (بيرون)- من هوأعظم شأناً من اللورد(تشيسترفيلد)من دانتى ما أخذه من (فيرجيليو):موضوعاته،براعاته وألوهيته، وسأكون مسروراً إذا قرأتى اليوم قبل النوم"الكانتو سينكو دى أنفيرنو" (أغنية الجحيم الخامسة) وإن لم تستوعبيها جيداً سأشرحها لكى غداً.

ـ أعدك أن أفعل .

قصر بيتى: قصر كبير فى فلورنسيا يعود إلى عصر النهضة ،يقع على الطرف الجنوبى لنهر أرنو.

*ويليام شكسبير: شاعر وكاتب أنجليزى ،يصنف كأعظم كاتب فى اللغة الأنجليزية وأعظم كاتب مسرحى على مستوى العالم.

*اللورد بيرون: شاعر أنجليزى وقيادى بارع فى الحركة الرومانسية.

*ريتشارد برينزلى شيريدان:كاتب مسرحى أيرلندى،شاعر وصاحب المسرحى الملكى بلندن.

* دانتى أليغيرى: شاعر إيطالى من فلورنيسا أعظم أعماله الكوميديا الإلهية.

* أغنية الجحيم الخامسة:قصيدة لدانتى يتم فيها معاقبة الشهوات.

* أساندرو مانزونى:كاتب وشاعر إيطالى، يعتبر أحد أكبر روائى إيطاليا عبر العصور،خصوصاً روايته المخطوبون.

فيرجيليو: شاعر لاتينى.

ـ وبعدها سنقرأ معاً \(لمانزونى) فهو شاعرى المفضل، ستجدى لديه أفكاراً رائعة كتبت ببراعة، وتمثاله ذاعباءة يونانية لا مثيل له حتى الآن فى فن النحت، كذلك تراتيل"أديلغى" تستحق أن يتغنى بها إلى الله، أما"أرمينجرادا" فقد كانت امرأة طاهرة، وذلك لروح الشاعرة الموجود داخلها والألم الذى حملها حتى

الموت .كما سنقرأ(التاسو، أريوستو والبوكاسيو) الاسم الذى ربما يبدو سُباباً، وإذا سمح لنا القدر أن نتمتع بهذه العلاقة التى أرادها الله، سندرس الأدب الحالى فهو يستحق الدراسة أمثال (جيرازى، بارشت، أزاجيلو و مازينى*)هذا الخطيب السياسى المُنقطع النظير فى تاريخ"لوس بينزى" فى إيطاليا الحديثة آاااه لو تتحدثى الإسبانية !الا تضحكِ ،ليس ذنبنا أن أسبانيا تتحدث لغة ميتة -إذا جاز التعبير- فالتقدم الحالى للحضارة، رهبانها، محاكم التفتيش وحكومة "لكاسا دى أوستريا"هم من مسحوها من الميثاق الأوربى، ولكنها عادت للحياة من جديد و امتلكت كنوزاً جعلت أوائل الأمم تحسدها، ولكنى لست إسبانى ك،ذلك ظلت ألمانيا-التى توصف بالمجتمع الحكيم بين أكثر المجتمعات ذكاءاً- بجانب إسبانيا لتستغلها، أما الأدب الأرجنتينى يعود إلى الأمس، فالأرجنتين لم تكن دولة،ولا يوجد لديها حياة خاصة ولا رجال ينكبون على العلوم ، وليس لديها أيضاً تقديس للذكاء البشرى إلا بعد(١٨١٠) كانوا مقيدين فى حلقة ضيقة للغاية لمستعمرة نائية، وعاش آبائنا وماتوا دون أن يجدوا وقتاً ليهتموا بأمور أخرى ضرورية جداً من أجل إنتاج الشئ المرغوب فيه-أى الذهب- مما يؤكد على سيطرة السلطة الخارجية .

جاء تحرر الفكر مع رفع الولاية عن الوطن، لذلك يوجد القليل من الأناشيد التى تعبر عن إحياء شعب بسمو أكبر، قلباً أطهر ونبل أعمق مما لدينا الشخص الذى ساعد فى تحرر الوطن لم يكن واحداً من الشخصيات التى لفتت الأنظار فى ذلك الوقت بمواهبها، ولكن عند سماع دقات الطبول التى تدعو أبناء الشعب المستعبد للخروج فى معارك مقدسة من أجل تحرير الوطن المكبل بالقيود، أطلق صرخة بروحه البسيطة وسط المخاطر والأمال لتقول كلمات بدت منقوشة بالماس منقطع النظير، فاستمروا فى المعارك، الانتصارات والهزائم عايشوا الظلم، الحروب الأهلية، الأخطاء، الأوقات العصيبة،

التطلعات الذاتية،الآمال و التضحيات من أجل الحرية.

كل هذه الحوادث كانت لها شعرائها الذين بدوا وكأنهم أبطالها،خائنيها وشهدائها فى كل عصر يوجد أخيل هوميروس اللذان رغم سقوطهما فى بئر النسيان حتى أنه لا يتم إحيائهما إلا فى ذكريات التاريخ البالية، ولكنهما كانا كالدروس التى أتت ثمارها، فبعد(لوبيز،لفينور*،رباريلا، روخاس ولوكا) أتى أصدقائى (أتشفيريا*، جوتيريز،مارمول*، دومينجوز و ميترى *) ،جميعهم شباب عاصروا مصائب الوطن وعاشوا يعانون فى المنفى، ولكنهم ربما كانوا أشرف بآلاف المرات من هؤلاء الذين يتجولون فى عربات ذهبية فى فرنسا وانجلترا فقط لأنهم قد ولدوا فى مجتمعات ذكية وثرية.

*جوزيبى مازينى: وسياسى إيطالى معروف، ملقب بروح إيطاليا.

*أخيل: أحد الأبطال الفلاسفة الأسطوريين الإغريق

*هوميرس:شاعر ملحمى إغريقى أسطورى.

*لفينور:شاعر، فيلسوف أرجنتينى.

*لويس أتشيفريا: محامى وسياسى من المكسيك.

*بترومولى ميترى: رجل عسكرى، سياسى، مؤرخ،أديب وصحفى أرجنتينى.

*خويس مارمول: سياسى، شاعر، روائى، صحفى أرجنتينى، ينتمى إلى تيار الرومانسية.

كما أود أن أقرأ لكِ "البرجرينو" لمرمل، "الكوتيبا" لأتشيفريا، أو أيٍ من أعمال من ذكرتهم، ثم أسألك مثلما فعل هؤلاء فى وطنىً هل لديكم أمثالهم؟ وبعدها أحدثكِ عن الشعر والنثر، فلدينا أسماء كتاب ناثرين لا مثيل لهم من بين من أنتجتهم الحركة التحريرية، أمثال البيردى*، بيسنتى لوبيز*، وسارمينتو* الذين تتمتعوا بأسلوب لا يُحاكى يتميز بالنقاء (لوبيز) كان ضليعاً فى شتى العلوم ووعظى اللهجة، و(فلورينو باريلا) فقد خضع لحِنجر أعداء الحضارة القاتل، و(بيكو) الذى كان لطيفاً،

أنيقاً وبياض قلبه تماماً مثل الشعر الأبيض الذى يزين رأسه، وغيرهم المئات ممن حكم عليهم الحظ السئ أن يبدعوا ولكن فى عزلتهم.

ـ قالت أستير: ولكن يا أوخنيو الدولة التى لديها أمثال هؤلاء، لابد وأن تكون فى تقدم استثنائى، وقد سمعت من قبل أن أمريكا تمكنت فى سنوات قليلة أن تصبح أول دولة فى العالم !.

ـ أمريكا نعم فهذا هو المفهوم هنا فى أوربا... صار علمنا يؤدى التحية العسكرية للشواطئ الأسبانية بعد أن أصبح حديثهم بالسيف والمدفع،ولكنه يأخذ على أنه شعار للقراصنة فى كثير من الدول الأوربية، فأمريكا الشمالية فقط هى المعروفة لديهم وذلك لأنها فى الغالب هى الوحيدة فى العالم الجديد التى تستحق مسمى دولة لقد أتمت هذه البقعة المكتشفة من قبل (كولون) إلى انجلترا وسُكنت بالإنجليز أو بالأحرى سكنوها رغماً عنهم، فلقد كانت ملجأ للنبلاء والرأسماليين الذين هاجروا الجزيرة الأسبانية فى عهد "كروميل"*حاملين معهم عاداتهم التى تميل إلى حد ما إلى الإقطاعية ولكنها تجمع بين النظام والتحضر، كما ساعدت التجارة والصناعة والوسائل المتاحة لاستغلال الأراضى التى صلُحت بشكل رائع فى جعل الشعب يحكم نفسه بنفسه خلال قرون قليلة.

كانت أراضينا جميلة كالزهرة فى الصحراء حتى جاءها أول ساكنيها من اللصوص والعصابات الهاربين من السجون الإسبانية فى هذه الفترة خائفين من الموت المُشين هناك، رحلت بهم السفن مُكدسين فى أجوافها، حاملين فى قلوبهم رذائل الماضى وبالطبع الكراهية الشديدة للبلد التى عاقبتهم.

كانت أبشع الجرائم التى تهزالبشرية مثل القتل وانتهاك العرض هى تسلية هؤلاء السكان، وعندما شعروا بالملل من تكررها وقراروا أن يرتاحوا، أتخذوا إحدى الهنديات (السكان الأصلين) مطلقين عليها مسمى صديقة ليمارسوا معها الرذيلة،

ويعاملوها كالبهيمة والسبب فى كل هذا أن معرفة الناس بوجود الذهب الذى لاينضب من مناجمنا التى لازالت حتى الآن تحتفظ بكنوز هائلة، جذبت تدريجياً بعض الأسر الفقيرة عديمة الأخلاق، وذلك لأن الفقر فى أوربا هو رفيق شبه دائم للجهلة منحطين الأخلاق الذين أتوا إلى المستعمرات الجديدة منحيها عاداتهم السيئة فى مقابل جنيهم للكنوز، وهكذا ازداد عدد هؤلاء السكان الذين -بفضل الله- عانوا على مر ثلاثة قرون تغيرات جذرية، وكما ترين فى ظل هذه الظروف سيكون من السهل التقدم بشكل سريع لبناء الحضارة ؟!... ولكن دعينا من كل هذا يا أستير، فأنا بجانبك أنسى الخلق جميعهم و لا أشعر بمرور الوقت.

*دومينجو فاوستينو سارمينتو:الرئيس الأرجنتينى السابق، كان له موقف مناهض للسلطات فى الأرجنتين فى فترة الثلاثينيات و الأربعيات.

*بيسنتى لوبيز: محامى، سياسى وكاتب أرجنتينى.

*خوان باوتيستا ألبيردى :أقتصادى ،سياسى،دبلوماسى، وكاتب أرجنتينى.

ـ قالت أستير: وأنا أسمعك أوخنيو.

ـ أجابها:" أنتِ ملاك ، سنترك ضفاف نهر أرنو -فى بلدى لا يوجد حتى نُهير- وسنذهب إلى المرج الذى تقام به السباقات الإنجليزية ، هناك لن يلاحظنا أحد ،ففى الواقع أرى أن نزهتنا هنا ملحوظة للغاية، يحيونك أصدقائك مئات المرات وأنتى تجيب عليهم دون اكتراث ألا تخافى أن يغاروا منكِ؟

ـ لا فأصدقائى إنجليزى نبلاء سأقول لهم غداً: "أن الرجل الذى رأيتُنى أمسك بيده، قد أنقذ حياتى وكان يحدثنى عن بلده، دراسته، انطباعاته عن إيطاليا"ولذلك سيجدوا أنه من الطبيعى أن أشرُد.

ـ يا لهذا الهواء الرائع هنا يا أستر! وكم هى رائعة الحياة التى تحيها هذه الأشجار ! حقاً تُحسد عليها ، ففى الشتاء لا تتصارع

مع ريح ولا يُذبل الثلج أوراقها، وفى الربيع تكون أول من يُكسى بالأوراق ذو الخضرة النضرة. تماماً كما يقول النحاتين فى دعوتهم لنا للإستظلال بظلالها... آاه كم هى جميلة الطبيعة الفلورنسية !.

ـ هل تحب إيطاليا كل هذا القدر ؟.

ـ نعم كثيراً... هل تعلمى لماذا؟ و لماذا رغم أنها شقية إلا أننى أشعر بالتعاطف مع كل نكباتها ؟

ـ ولماذا رسمت لى مجتمعها ومستقبلها بألوان قاتمة؟.

ـ سأقول لكِ الحقيقة دون بغض أو حقد يا صديقتى، فأنا يجب على ذلك ربما فى العديد من الأوقات تسبب هذه المجاملة المغالى فيها إلى شعور الإيطاليين بالحزن، فهم يعيشون راضين بالكلمات القليلة التى يسمعونها ممن يحبهم، ولكن أنظرى إلى تلك الفتاة التى مرت بالخيل مسرعة كسهم لأحد الهنود الموهيكان.

ـ هل تعرفها؟.

ـ لقد رأيتها وهى تركض بالخيل مئات المرات هنا، ولكنى لا أعرف اسمها كانت دائماً برفقة طفل، طفلة، سيدة وفارس يبدو أنه والدها، هم عائلة أمريكية ، ستصبح هذه الفتاة الأنيقة الجميلة بشكل أو بآخر واحدة من"لاس فانتينوس" الذين يظهرون فى سباقات الخيول، يوجد انحرفات لا تُفسر فى هذه الحمى المسمى بالموضة(سلوك الناس فى المجمل) يبدو أن بعض الشباب الأمريكين قد راهنوا على قيام سباق للسيدات، وأن هذه الشابة ستشارك فيه أمام أخرى إنجليزية، سنشاهده معاً يا أستير، وإن كان ذلك على مضض منى، فأنا أرى أن مثل هذه الأفعال هى انتهاك حقيقى لسكون الطبيعة.

ستظهر غداً هذه الفتاة مثل"لا أرمينيا دي تاسو" : بوجه أحمر قانٍ وقبعة على ظهرها، وصوت السوط الذى تضرب به على جانبى حصانها الأصيل على طريقة(لوس بوستيونيس) الأسبانين. وبعدها يبقى أن تمطى جوادها كالرجال وترتدى

المهماز فى قدمها لتكتمل الصورة، وعلى الرغم من أنها إذا فازت، ستستحق التصفيق وللقبت بفائزة البطولة، ولاحقاً هل تقومى معها بالدور المقدس للأم ؟! بعد انتصارها وبعدما شهدت حضور ثلاثين ألف شخص يلوحون بحركات والتواءات كالمهرجين، أحطيها بالمقام الرفيع الذى يزين نقاءها، و أعطيها التواضع وبياض القلب اللذين يضيفان لجمال الوجه، أشعر أن نفسى ستشمئز من هذا السباق يا أستر.

ـ لن نراه .

بلى يا صديقتى سنتحمله، فالرحالة يجب أن يرى كل شئ، والآن أظن أن جموع الناس بدأت تقل، فلنذهب نحن أيضاً أنتى فى طريقك المعتاد، وأنا كذلك هل مازالتى تذكرين؟غداً فى قصر (بيتى) صالة (نيوبى) فى الظهيرة .

ـ صالة نيوبى قصر بيتى، وداعاً.

- V -

انتظر أوخنيو فى الفندق دعوة لحضور حفلة راقصة فى منزل زوجة المركيز "بيرنى".

ولقد غيرت مغامرة خيول السيدة ويلسون الجامحة مجرة حياتة فبدلت من سلوكه فى المعاملات وكذلك من ملبسه، فبعد انخراطه فى هذا المجتمع توافدت عليه الدعوات والهدايا من كل ناحية، حتى أنه لم يعد يهتم كثيراً باستلامها، كما أصبح يزعجه للغاية أنه يجب علية التضحية بالكلمات الحميمية التى تقال فى النزهات من أجل سعادة زائفة فى حفلة راقصة، وبالأخص عندما يتوجب عليه إظهار شخصية مصطنعه لتناسب آداب المعاشرة(الأتيكيت)فى القصور، والتى فى العادة تكون بهدف إظهار الترف التافة، ولكن المركيزة-روسية الأصل- كانت صديقة له منذ مجيئه إلى فلورنسيا، كما أنها كذلك للسيدة ويلسون، لذلك توجب عليها الاستسلام للمقادير وارتداء قناع

الأتيكيت السخيف.
ربما كان لازال غافلاً عن طباع المجتمع الذى استقبله مؤخراً، رغم مجاملاته للمركيزة، وقدالتف ليختلط بجموع الرجال المنتشرين فى أرجاء الصالون دون أن ينظر لمن بجانبه ومن خلفه.
ـ قالت المركيزة مشيرة إلى أستير: أوه لا! ألم تلقى عليها التحية؟!.
عندما وصلت هذه الكلمات إلى مسامع أوخنيو، علم على الفور أنها موجهة إليه، وبوقوع نظره على أستير التى كانت واقفة بجانب المركيزة، رآها والابتسامة تعتلى شفتيها الدقيقتان كما لو أرادت أن تقول: أنا أعرفه، وهذة لم تكن إهانة أو أزدراءاً وإنما شروده المسيطر عليه دائماً، فهرول أوخنيو ليصحح غلطته تلك، وأمسك يدها بطيش وقال:
"منذ يومان فقط رجوت السيدة (ويلسون) أن تسامحنى على أخطائى اللا محدودة بشأن هذا المجتمع الراقى، فهل يتوجب على أن أعيد رجائى هذا مرة أخرى الآن؟... فكيف لى يا إلهى أن أجمع كل هذه الصفات فى هذا العالم؟. فأنا ابنٌ للبرية و معتاد على الرحلات الطويلة، ودائماً ما أنشغل بباطن الأشياء دون النظر إلى ظاهرها، وبالتالى لا أفقه شيئاً فى هذه اللباقة التى يجب أن أستخدمها فى مثل هذه المقابلات الاجتماعية، فإن شئتِ فلتفرضى على عقوبة، وسترين كيف سأنفذها بكل سرور".
ـ أجابته أستير: رائع،إذاً عقابك هو أن تراقصينى أول رقصة فالس*، وأحذرك أن هذا سيكون عقاباً شديداً حقاً، فأنا لدىَ مهارة أُحسد عليها.
*الفالس:رقصة ألمانية نمساوية الأصل
قالت المركيزة وهى تضحك بحلاوة ساحرة: "لقد احتدمت غيظى يا عزيزتى".
ـ أجابتها أستر : "لا تغضبى، وبدل العقاب الذى فرضته عليه، سأضع له تاج المنتصر".
ـ قال أوخنيو: "أوه أنتن ليس لديكن رحمة !

ـ أجابت المركيزة: نعم، ولكن بشرط إذا رقصت معى عند قدوم الفرقة الموسيقية التى أنتظرها.
غمرت الأوريكسترا الصالون بموجات من تآلف الأنغام مع النوت الحارة لموسيقى "بولكا دى ستراوس"* التى أثارت حماس المستمعين، أثناء ذلك لم يفارق أوخنيو المكان الذى تتواجد فيه أستير، حيث أنه حضر فقط من أجلها، و كانت نظراته دائماً متجهة نحوها، وسعادته لا تكتمل إلا بوجودها، وحياته ارتبطت بحياتها، فقد سيطرت نشوة النعيم على روحه.
ـ سأله المركيز وهو يشد على يده: هل أنت مريض؟
ـ أجابه: "لا أبداً والله".
ـ هل تشعر أنك ستموت قريباً؟
ـ مركيز !
ـ أنت فى عالم آخر كما لو كنت ميتاً !
ـ دعنى أتمتع بجفلتك الجميلة، فالوقت لازال مبكراً والصالون مكتظ بالناس، يتوجب عليك التنازل عن كنزك لى"مركيز" هل تظن أن الناس لا تعلم أن المركيز بيرونى لديه كنز مخبأ فى قصره، ولا يمكن لأحد الوصول إليه؟ بل يا صديقى الكل يعرف، والتخمينات لمعرفه مكانه لا تُحصى.
ـ متى سترحل من فلورنسيا؟
ـ أووه إنه لشئ مزعج .
ـ لا لم أقصد ذلك، أردت أن أعرف لأننى أفكر أن أفتح أبواب كنزى قريباً!.
ـ غداً سيكون يوم رحيلى، وسأعلمك بالموعد.
ـ تهانينا، هيا لنذهب إلى صالون الألعاب، فالعديد من الأصدقاء ينتظروننا والمسكين ويلسون تعيس الليلة.
ـ لا يمكننى، فهناك عقاب لى برقص الفالس... مع من تظن؟
ـ مع زوجتى أيها الرجل الأنيق.
ـ ماذا؟! وهل تعتقد أن الرقص مع المركيزة هو عقاب بالنسبة لى؟ دائماً الأزواج يشعرون بالشفقة على غيرهم .

ـ هه هه هه... مع من سترقص إذاً؟
ـ مع السيدة ويلسون.
ـ وهل هذا عقاب باللة عليك؟
ـ كما سيكون لو رقصت مع المركيزة !
ـ فهمت الآن أيها اللئيم
*بولكا: أحد أعمال الملحن النمساوى يوهان ستراوس .
وبعد سخرية لاذعة تركه المركيز، فهرول أوخنيو ليمد يده لأستير حتى ترقص معه .
اقترب منها حتى لا يسمعه أحد وسألها:
ـ ماذا بكى يا أستير؟ لماذا ترتعشين هكذا؟
ـ أنا بحالة سيئة يا صديقى ، فأنا حزينة،خائفة و مجنونة أيضاً...
ـ هدئ من روعك بالله عليكى، وأجيبينى ماذا حدث؟ هل وقعت حادثة فى المنزل أو فعل طائش من أحدهم؟!
ـ لا يا أوخنيو...لا يوجد شئ فى الخارج يؤلمنى فعذابى داخلى، أحتاج أن أبوح بسر مدفون داخلى، فهل ستفصح عنى؟
ـ آاااه يا أستير هل تريدى إجبارى على أن أركع أمام الجميع لأعرفه؟
ـ حسناً يا صديقى ،ويا منقذى، أنا... آاااه ! ،نعم... أنا أحبك!
ـ أسعدك الله يا ملاك !
وحتى لا تلمع عيناه فرحاً وتظهر سعادته على وجهه، فيلفت انتباة الحاضرين أمسك أوخنيو بخصر أستير بشكل هائج وأخذها بين هذا الزحام لرقصة الفالس التى كانت مثل أمواج المحيط الهائجة، وظلا يرقصا دون توقف حتى أنهما كادا أن يصلا إلى الموت فوق هذه السفينة التى تحملهما.
لا توجد كلمات ولا حتى إشارة واحدة تترجم ما كان يحدث بين هذين الروحين، فيا لهذه السعادة ! كم هى عذبة ! تماماً كما قال الشاعر :
ليس هناك حزن أعمق من تذكر لحظة سعيدة وسط التعاسة.
وصلت الفرقة التى كانت وعدت المركيزة بالحضور، فأنتهزت

الفرصة فى الفواصل الموسيقية الطويلة للرقصة الحالية لتلوم الرحالة أوخنيو بكلماتها الراقية والرقيقة قائلة:

ـ أرى أن هناك عقوبات يُحسد المرء عليها، وأراهن على أنك أردت أن تظل مُعاقباً هكذا طوال الليل.

ـ أجابها:" كذلك هناك مكافآت هم أغلى بكثير مثل الرقص على أنغام هذه الفرقة.

ـ ولكنى لم أتحدث عن مكافآت بل عقوبات.

ـ لا أنكر، ولكنها عقوبات لطيفة، كما أننى أعتقد أن المكافأة تستحق العناء، و أسألى السيدة ويلسون .

أذهل تبريره الذى جاء مختلفاً عن المتوقع المركيزة، كما أنها تعلم -كامرأة ذكية- أنها ربما ضربت على وتر حساس لديه، لذلك غير من مجرى الحديث.

كانت كالعادة تحافظ على روحها الرائعة واللطيفة بينما تستسلم بطيب خاطر إلى الانتقادات الساخرة التى تملأ مجتمعها.فقالت له:

ـ لا تفهمنى بشكل خاطئ، فأنا لا أتعمد أن أخطأ ولكن هذا يحدث سهواً.

ـ ولكنى لست غاضب يا مركيزة.

ـ بلا، وهذا يبدو من خطوط جبهتك التى تشير إلى أنك شارد فى فكرة ما.

ـ ربما كانت جيدة.

ـ لما ظهرت هذه التجاعيد، ألم ترَ جبهه تمثال "فيروسيكو"؟

ـ بلا، تشبه الموجودة فى منحوتته"موسى"* (لميجيل أنخيل) مجموعة من الخطوط المتقاربة التى تتوج حاجبيه كما يتوج السحاب المدارى غروب الشمس، وكما قال ميجيل أن (فيروسيكو) تعكس الفكر الذى استوحاه من موسى، قد تكون خطوطاً قليلة ولكنها معبرة.

ـ حسناً يوجد فى كليهما نفس الخطوط المرسومة على جبينك الآن والتى أرها لأول مرة.

ـ ذلك لأنكِ لم تتفضلى بالنظر إلىَ من قبل، أعتقد أننا أنهينا الرقص على أنغام هذه الفرقة، وأنه حان الوقت للعودة إلى مقاعدنا، رأيتى كم أحب الرقص.

ـ أتبعنى فأنا أريد أن أنهى هذا الحديث.

ـ سيضرك مركيزة.

ـ كيف ستضرنى؟ هل تقصد أنى ليس لدىَ حق فيما أقول؟

ـ لا لم أقصد ذلك، بل أقول هذا لأن الصالونات مملوءة بثعابين سامة، حضرت حفلتك فقط لتنشر سمومها فى السعادة القليلة الموجودة لدى الشخص الذى يعيش غير مهتم بالعواطف... أصبحت اليوم حديث الناس كما كان الأمير الهندى ذو الثروة الضخمة منذ شهرين، جعلونى أعتزل الحفلات و أبعد عن الأماكن المزدحمة بالناس، وبعدها سمعت أنهم عزو إلى بعاطفة عميقة نابعة من قلبى، وأنتِ شابة وجميلة وستكونى مصدر إلهام لكلامهم، أعرف أنى جدير بمعاملتك الجيدة التى أخشاها ،فاحترامى الزائد لك و للطفك الشديد معى سيُساء فهمهما.

ـ هل هذا ما يدور فى بالك حقاً، أم أنها حجة لطيفة لتنهى الحديث؟

ـ أوه يا سيدتى! ما قلته للتو لا يستدعى الإساءة، فأنا لا أضحك أبداً فى أمور تخص سمعه سيدة. فى فلورنسيا يسهل على الناس الأخذ بالمظاهر، والشباب هم محط أنظارهم وذلك بطبيعة الحالة و بالضرورة، ولكن لا أعلم إن كان هذا طبيعياً، فهم نشأوا فى بلد فيها الحرية ليست على وئام مع تطلعاتهم وطموحاتهم النبيلة، هنا يتخذون فكرة تحليل حياة الآخرين كوسيلة لملئ الوقت وربما لشغل الروح التافه أيضاً، ومجال تخميناتهم واسع، كما أن الفلورنسى بالفعل لديه طاقة هائلة على التخيل، فإذا تكلمت معك نصف ساعة، سيجولان أسماءنا فى فناء تعريشتك، فى (الكوكومبر) فى المقاهى، فى الشوارع حتى نصبح غداً موضوع إحدى المجلات التى تهوى التشكيك فى كل شئ فى (لاس كالساسيناس).

ـ وفقاً لما يقوله: أنا امرأة أجنبية شابة وجميلة، لذلك لابد وأن أظهر مئات المرات فى مجلات من هذا النوع، ولكن هل تعلم ماذا يكون أثر ذلك؟ دائما عكس ما يريدون،أظل أضحك بينما هم منشغلين بتمزيقى فى السر مثلما يفعل الخائنين، وتخيفهم شجاعتى فى اليوم الأول، ويكونوا مجبرين على التفكير فى صحة ما قالوا فى اليوم التانى، وبعدها يقتنعوا أنهم لم يكون على حق، والآن بعدما تحدثنا عن القيل والقال فى فلورنسيا، هلا نعود إلى موضعنا؟

*منحوتة موسى: منحوتة من الرخام الأبيض، صممت فى الأصل لقبر يوليوس الثانى

ـ أعترف أنه لشئ بطولى ! قلتى أن هناك خطوطاً على جبهتى تنم عن انشغالى بأمر ما و حزن أليس كذلك؟!

ـ بل و أنها دليل على إخفاء ألم راسخ وواضح، لم ألاحظه من قبل بسبب عدم إكتراثى.

ـ هل تريدين أن تكونى حكماً بيننا؟... أنظرى إلى السيدة ويلسون هناك، تقف وحيدة شاردة والله وحده يعلم فيما تفكر، ساعديها لتقرر سأترك لكى ذمام الحديث معها شارحة لها الحقائق، الملاحظات وتخميناتك، قولى لها دفاعاً عنى أننى ببساطة أنكرت حزنى.

ـ أجابته المركيزة"جيلفا": موافقة، وطارت كحمامة الحب إلى أستير التى كانت على وشك أن تنهض، فأمسكت بيدها و أجلستها مرة أخرى، وبدأت تروى لهاما دار بينهما بشكل سريع كأزميل دوناتيلو*الحاسم القادر على إعطاء دروس للناس، ومبهج كألوان لوحات(سلفادور روزا*) ومقنع كلمسات فرشاة (دافينشى) بينما تسمع أستير بإنصات وكأن قلبها، بل روحها شغوفة لمعرفة الحقيقة، ورأى أوخنيو لمعة فى عيون المركيزة لأنها ظنت أنها استحوذت على تعاطف أستير لصالحها، التى قالت بعد دقيقتن:

ـ كليكما لديه الحق...رأت المركيزة أن هذه الخطوط تعكس

جرح فى القلب، والسيد قال الحقيقة ناكراً أنه حزين اليوم، فهل يبدو لكما أنكما أصبتما فى هذا الحكم ؟

ـ صاحت المركيزة: ليس تماماً.

ـ قال الرحالة : بل إنه صحيحٌ تماماً

بدأت مناقشة جديدة عندما رأت كلاهما اللورد ويلسون، الشخصية التافهة المضجرة.

ـ قال ويلسون: صارعت مع سوء الحظ على قدر ما استطعت، ونتصرت، فالنيبى* لعبة متقلبة الأطوار... أدعوكى لرقصة الفالس يا مركيزة لما لا ترقص أيها الأمريكى؟هل لا يوجد فى بلدك مثل هذه اللقاءات؟

ـ بلا رقصت يا سيدى، وأضاف ببرود هذه الحفلات معروفة فى بلدى، ولكن مع بعض الاختلافات، (فبوينوس أيرس*) هى جمهورية، لايوجد ملك إنما حكومة، ولذلك لا يوجد لدينا هذا الأتيكيت الصارم فى الحفلات، بالإضافة إلى أن من يحضرها يأتى ليرقص، أما هنا فأرى أن نصف الموجودين تقريباً مشغولين بالنميمة والكلام عما يحدث حولهم، وعن أفعال كل شخص، فمجتمع كهذا ينبغى أن يكون لديه من يسجل أفعاله بشكل سريع !.

*النيبى: ورقة من ورق اللعب.

دوناتيلو: نحات إيطالى من فلورنسا، يعد من أشهر النحاتين إلى جانب مايخيل أنخيل،ومن فنانى إيطاليا المعروفين فى القرن الخامس عشر وفى عصر النهضة الأوربية.

*سالفدور روزا: رسام إيطالى ،شاعر وناشط فى نابولى،روما وفلورنيسا.

*بوينوس أيرس: هى عاصمة الأرجنتين.

ـ أمسك اللورد يد المركيزة قائلاً: "هيا لنرقص الفالس، واستغل أوخنيو بقاء مقعد اللورد فارغاً وتظاهر بعدم اكتراثه لذلك، ثم قال لها:" أفعلى مثلى، فإننا محاطين بجواسيس".

ـ أنا أعانى كثيراً، وأشعر أن العالم كله يقرأ ما بداخلى، بل وإن

الأربعمائة شخص المحيطين بنا يتناجون عن ضعفى... أنت لا تلومنى أليس كذلك؟

ـ أنا أعشقك يا أستير، وأدين لكى بسعادتى، فدعينى أتمتع بها داخلى، والآن تسألينى إن كنت ألومك،آاااه لو رأيتى ما فى قلبى!...إنه لشئ قاس، ولكن تدبير الله أمر جيد!... أسمعينى، لقد ولعت بكى كملاك من السماء حتى قبل أن أسمع صوتك، والآن بعدما اعترفتى لى بحبك، أصبحت أعشقك أكثر لأنكى أصبحتى كالملاك الذى بعثنى للحياة من جديد، هل تريدى أن أفصح لكى عن كل ما فى قلبى؟ هل ترغبى أن أزدرى كل هؤلاء الأشخاص المسمين بالنبلاء، وأركع تحت قدميك و أقبل التراب الذى تسيرين عليه؟ لا تقولى كلمة أخرى، فأنتِ قد قلتى، والآن أنا مجنون بكِ ، دعيكى من المجتمع، فهو لا ينظر إلا لظاهر الأمور.

ـ كم أرغب فى الانعزال عن البشر! أدركت الآن قيمة الحرية التى عشناها فى نزهاتنا وفى مروجك الأمريكية هل لك أن ترافقنى؟ أخذنى إلى كل الأماكن، إلى الصالونات حيث يلعبون ويشربون، ولنرى إن كان هذا الانفعال السلبى سيرحل عنى تدريجياً أم لا؟ فأناهنا حالتى سيئة، فالجميع ينظرإلى بينما أنا ارتجف.

ـ سنفعل ما هوأفضل من هذا، تحججى بأى وعكة ودعينا نذهب معاً،طبعاً فى حالة إن لم يرد اللورد مرافقتك، كما أنكِ قلتى من قبل أنكِ لا تخافى وأنت بجانبى !

ـ لا أجرأ على أن أطرح علية الأمر... فهو أنانى للغاية.

ـ إذاً... هيا.

أمسك بيدها وجذبها وسط الزحام حيث يتراص الراقصين كالطيور المتعجبة من سقوطها فى شبكة، وكل منهم يجاهد ليشق طريقه، رغم تلقى أوخنيو هذه التصادمات الغاضبة القادمة من هؤلاء الهائجين كما لو كانوا يهربون من معركة، إلا أنهما كانا كالأبطال فى الحماسة والمثابرة، أما اللورد ويلسون

فكان يسحق العديد من الناس، ونظراً لكونة بديناً فلم يستطع أن يتقدم خطوة وسط هذا الزحام، فقط ظل يمسك يد (جيلفا) الرشيقة والرقيقة بقبضته الهرقلية و يتقاربا جداً مع اقتراب أمواج الناس المندفعة، ويبتعدا ببعدهما عنهما، وظلا كذلك مرات عديدة.

ـ قال أوخنيو: "انتصرنا يا أستير وعبرنا بينهم، فالثابرة هى أعلى الفضائل".

ـ آاااه يا صديقى ،كم أنا سعيدة بجانبك !

ـ ثقى بى يا حبيبتى.

وضعت الأنغام بضربة حاسمة وقوية نهاية لرقصة الفالس تشبه قول "لا" من شخص غاضب.

وبدا اللورد وكأنه آتياً من الصيد :"يتصبب عرقاً، وقد أفسد شعره، و تفُككت أزرار بدلتة ، محاولاً الخروج من هذا الاشتباك، وبمجرد أن اقترب دنا منه الفارس قائلاً:

ـ زوجتك ترغب فى الرحيل سيدى.

ـ فأجابه: "أعترض بشدة، لأننى يجب على الدخول فى مباراة ثأرية مع أصدقائى فهم ينتظروننى...

ـ إذا سأوصلها أنا .

ودون أن يسمع أو يرى أى شئ من حوله، طلب العربة من أول خادم رآه، ثم أخذها اختفيا.

سعدا للغاية لوجود المرأة التى أحبها لأول مرة بجانبة وسط هدؤء ليل الربيع، عندما يرسل القمر أشعتة الحزينة على الأشجار، المعابد، و الميادين البعيدة.

شعرت أستير بالانسجام مع هذه اللحظة الرائعة، كما أدركت دون عناء انطباعات الفارس، فقدعكس وجهها الملائكى ضوء القمر الذى جاء ليضئ جبهتها، فلو حسد الشاب قبلة الليل لملكة ، لما اقترب من وجهها، ففى صمت و حزن كأنة يقبل على اقتراف شئ معيب، اقترب من جبينها مقبلاً إياه.

ـ قالت: "أشكرك أوخنيو، أشكرك ألف مرة، ثم سألته:"هل

أنت حقاً تحبنى"؟
ـ ألا تعرفى؟
أخاف كالعادة... لو كنت من تلك السيدات اللاتى يعرفن السيطرة على نمو تلك العاطفة، ويستعملن التملق،القساوة والوسائل العديدة التى توقفها داخلهم، لربما كنت أكثر هدوءاً الآن، ولكننى دائما مسلوبة الإرادة ، والحياة هى من تحركنى، ولكنى عملت جاهدة للتخلص من ذلك فما لدى لتهوانى؟، و من أكون لأستحق هذا الحب؟
ـ أسمعى يا أستير لو كان هذا الكلام من شخص آخر لاعتبرته إهانة، فبالله عليكِ لا تخلطى بينى وبين هؤلاء الرجال الذين يتاجرون بالأحاسيس ويقومون بعمل دراسة باعترافات الحب التى يتلقوها كدراسة تغيرات البورصة. عندما قلت أنى أحبك فذلك لأنى حقاً أحببتك من صميم قلبى، أما لماذا أحببتك ،فلا أعلم.فوحده الله هو من يضع هذا القانون المغناطيسى الذى لا يقاوم بين روحين، و محاولة تحليله تكون بلا جدوى أنتى مرتعبة من أن تخسرينى، و أنا سأموت لو لم أراكى أو لو لم تكونى حبيبتى، فلم تجمعنا إرادتنا فقط، إنما أرادة الله.
ـ لا أقوى على مقاومة هذه الكلمات، وهنا وسط هذا الليل وهذه السماء، ولا شاهد على اعترافى هذا إلا تلك النجمة التى تضئ واجهة برج "أرنولفو" ،أقسم أنى أحبك وأنك أول حب لى.
ـ أشعر بحزن داخلى لأنى لم أستطع أن أقدم لكى إلا قلباً محطماً وذابلاً، ولكنى فعلت وأحببتك حباً عميقاً هائجاً ومجنوناً، والآن ليس لدى سوى روح مسكينة ولكنها ملك لكى بأكملها إذا أمرتى أن أموت سأموت، وإذا أردتى أن أرحل لأدفن أحزانى فى صحراء أى بلد كان سأفعل، وإذا رغبتى فى أن أكون قوياً وأحمى ضعفك وسط هذه النار التى تلتهمنى، لحميتك ولأفنيت حياتى من أجلك دون أن أشجب، هل ترغبى فى رؤية طاعتى لكى؟...فقط جربى وسترين.

عندما رأيتك لأول مرة تعبرين ميدان الدوق العظيم، وبدا أنكى تنظرين نحو"سابينا ديل بوجونا" قلت يا لهذا التناقض... ملاك ينظر لبشر، وحينها همهمت داخلى قائلاً: لو جعل الله آخر ضحكة فى حياتى الشاقة هى منحى محبة هذه السيدة، لكان هذا دليلاً على أن أبواب السماء قد فتحت وأرسلت لى ملاكاً ليوجهنى".

ـ آاااه يا أوخنيو، كم ستكون سعيدة من تسكن قلباً مثل قلبك!... دون أن يشعرا بسير العربة، وصلا القصر. ونبهتهما ملامح وجة الخادم التى تحمل الأحترام أنة يجب أن يودعا بعضهما البعض،لذلك لم يستطع الفارس أن يقول شئ سوى: "إلى اللقاء غداً فى صالة نيوبى".

كم هى جميلة فلورنسيا فى سكون الليل الذى يضيئه القمر!. سار العاشق وسط السعادة الوفيرة المفاجئة والطاهرة كأفكار الملائكة فى تلك الشوارع الفسيحة التى هى أنعكاس لسروره. أمام قصر"فيكيو"* حيث هبت العديد من العواصف الشعبية، وحيث رنت كلمات النبيل الشهم"فرانسيسكو كلردوسيو" التى كانت فصيحة ومليئة بالوطنية . أجتمعوا هناك رجال هذا الوطن لسن قوانين بالكامل، وقالت لكل أبناء الوطن- المشتتين رغم أنهم فى جسد واحد - الأتحاد هو من سيجعلها قوية و مستقلة.

مر أبطال أمثال "فيروسيو"و "دانتى دى كاستجليونى" ، وخائنين أمثال "باشيو بالورى" و"مالاتيستا" * أسفل تمثال ديفيد الذى يتوعد للناس بإشارته التى تعجب البعض و تخيف البعض، كما وقف أمامه الرجال ذوو المقام الرفيع فى هذه المدينة التى لا تهرم -باحثين عن سوط جلادهم- ناقلين دماءهم النبيلة عبر الأجيال والقرون، هناك نُقلت كلمات "ميكافيلى"* الواعظة، وعرضت حياته تحت رحمة من نقلوا كلام لم يقله، وهناك فى صالونات هذا المكان أصدر حكم المنفى ضد دانتى، عندما يُستدعى اسم (ميجيل أنخيل) لينبه المواطنين لإغاثة الخزانة

العامة، يحضر فى هيئته الجليلة و الغاضبة ليقول بصراحة وإيمان تام: "لن يعطيكم (ميجيل) ولا حتى حلية واحدة أكثر مما أعطاكم إياه، لأنه لو كان عرض عليكم ما يستطيع تقديمه كفنان، لما أعطاكم الحق لتخجلوا منه فى العلن."

قد تحيا الذكريات ويعكسها مبنىً ما تلقى الأسود المتوجة ظلالها الواهنة على الضوء الخفيف و على الحواجز الوسيطة لتوحى لنا بفكرة أن الأسود اليوم أصبحت لا تتألم لرؤية النعاج، بينما إذا صعدت الجبل لسمعت زئيرهم وانقضاضهم على"أريزو وجابينانا "وخلال ذلك يلقى القمر ضوءه الخافت على برج "أرنفلو" * كما لو كانت حمامة باسطة جناحيها، هذا البرج الذى تحدى الصعاب على مر العصور يخترق شعاعاً ماسياً "لا لوجيل دى لانسى"** و يضئ تمثال"أخاس" الحزين المريع، كما يبدو جسد صديقه المنهك الذى سُحل بعيداً فى المعارك العنيفة يجمع هذا الشعاع ليحيا من جديد، فتعطينا الصورة كاملة تخيل للحقيقة كما تعكس جمال الأسطورة.

ثم أدخل هذا الشارع الذى سكن به(دانتى، دافينشى، أورجانا، دوناتيلو ،بيتراركا، فاريناتا ديلى أوبيرتى" *والمحتال الشهير"فيسبوتشى" وتوغل بعدها داخل الجزء المظلم لهذين القوسين:الأول "لورنيو" الملقب برب الوطن والثانى "كوسيمو دى ميديشى" *الملقب بالعظيم منحهما تقربهما للناس هذه المسميات، وخضوعهم التام لمطالبهم هى من حافظت عليها.

*قصر فيكيو: واحد من الأماكن العامة الأكثر أهمية فى إيطاليا، فى ساحته نسخة من تمثال ديفيد لميخيل أنخيل.

*أريكو مالاتيستا: شيوعى إيطالى ، كان متمرد فى بداية حياته ،عاش فى المنفى ومكث فى السجن ما يزيد عن عشر سنوات.

*نيكولو ميكيافيلى:ولد فى فلورنسيا ، مفكر ،فيلسوف وسياسى إيطالى فى عصر النهضة.أشهر كتبه "الأمير" الذى هدف فيه أن يكتب تعليمات للحكام.

*برج أرنلفو: هو برج قصر فيكى ،يبلغ طوله أربع وتسعون

متراً.
*لا لوجيل دى لانسى: أحد الأثار التاريخية فى فلورنسيا،يوجد فى قصر سيجتوريا.
*فاريناتا ديلى أوبيرتى: قائد عسكرى وأرستقراطى إيطالى ،يعتبره البعض زنديقاً.
*كوزيمو دى ميديشى: سياسى إيطالى وأول حكام فلورنسيا من سلالة ميديشى التى سادت معظم عصر النهضة.
أما عن من احتكروا السلطة، فقد أُغتصبوا هم أيضاً، دافعين الثمن فى الحرب دمائهم، وفى السلم مالهم، ظانين أن حصولهم على مكان مميز بين الناس يرفع من منزلتهم، وهم فى الواقع وإن عاشوا حياة جيدة، ولكنها كانت بمفردهم مجتنبين التدنيس المشين لهم.
ومن بعد ذلك سترى "كالساخولى" و ستجد "الدومو".كما يعمل برج "جيوتو"* كحارس، كما لو كان معبد"السنيور"(السيد) ما زال يخاف من الغزوات الهمجية، يتلألأ القمر عاكساً الألوان العديدة لفسيفساء من المرمر، وتعجب عيونك بمليارات النجوم الضبابية التى تولد و تموت فى نفس اللحظة، وتتساءل: "ماذا تمثل هذه العظمة للتعاسة الحالية؟، فالمحطاط المجتمع الذى لديه أشخاص مثل هؤلاء قادرين على تنفيذ أعمال من هذا النوع، معارضين لأمر السلطة الوطنية، يجب أن يكون عظيماً وغير محدود عندما تصبح لا سلطة ولا أمة بعد خمسة قرون قادرة على إيجاد وسائل لإنجاز آخر زخارف معبد (ديوس) تظهر قبة "بورنلسكو" خلف المبنى رافعة صليبها الضخم حتى السماء لينال من بركة الله المقدسة، كما يسقط ضوء على أقدام تمثال ضخم لأحد المهندسين المعمارين، فيظهر وجهه الحزين وفى أعماقة يمكنك تأمل الفنان الفلورنسى الشهير، فهيئته ليست مجرد إنسان وإنما داخله شئ ملهم يعكس التفكير الجليل الذى استوحاه صانع هذا العمل الذى لا مثيل له حتى الآن فى العمارة الحديثة، فهو بالفعل منقطع النظير وذلك لأن

أعمال "أس بيدرو دى روما" تكون فريدة تماماً مثل أعمال (ميخيل أنخيل) القائل قبل رحيله:" سأخلق شقيقتك أعظم منك،ولكنها ليست أجمل".

عبر ضوء القمر من فتحات برج"جيوتو" ليصل إلى أبواب المعمودية، تلك التى ستساعد للوصول للجنة، فحسبما قال (ميجيل): "لو لم تحكم علينا أمنا حواء بالعيش على أرض الدموع هذه !".

ترك الشاب حبيبته وقلبه ملئ بالسعادة، حيث وجد المرأة التى كان يتمناها لتصرفه عن التاثيرات التى وحدها فلورنسا هى القادرة على القيام بها.

كان كل هذا كثيراً وبدون شك على إنسان معذب كادت حياته أن تنتهى قبل ستة أيام بسبب الألم، اليأس و القنوط.

*برج جيوتو: جزء من مجمع المبانى التى تشكل كاتدرائية فى فلورنسيا ، ويحتوى على سبعة أجراس

- VI -

نظراً لكونه سعيداً، رأى العالم من حوله جميلاً مبتهجاً رفض قلبه -الذى يحيا فى سعادة تحمل نوعاً من الأنانية- التأثيرات التى تقلل من شعوره بالرضى يختار منها ما يفرح فقط، تماماً كالمرأة التى ترقص بدلال، وتطير فوق كل الأشياء حتى تستحوذ على الشعور الذى يملؤها بالسرورالكامل من الداخل، وما الذى يمكن أن يفرح قلبه أكثر من تذكره لحبيبته؟!، فقد اعتاد على تلك الليالى الطويلة التى عاشها وحيداً فى غرفات الفندق دون علاقات مع الناس، أو شأناً بينهم، ولكن الآن شعرأن الحياة قد دبت فيه من جديد، وقال بثقة تحمل بهجة: الآن أملك روحاً تفكر فى و تهتم بأمرى ،مخلوقة طيبة القلب نقية، من أجلها يمكننى أن أبتعد عن الأمور الخاطئة، لأن نجمتى

(مزاجى المتقلب) -هى دائماً قاسية- تغمرها بالسعادة ثم تحترق، رغم أن قلبى ينبض بالحب، إلا أن كل أفكارى السيئة ستقلل منها ،ولن ترغب فى الاقتراب منى.

يحاط فى سروره الملئ بالآمال العديدة بتخيله لاعتراف أستير البسيط، وروحه تحلم بوجودها فى مجتمع آخر ومكان آخر، فية الجسد لا يعنى الكثير ولكن العواطف تقدر بقيمة عالية... قال :" سأحبها مثلما فعلت فى أول حياتى عندما خفت أن حبى المفرط يألم حبيبتى، ولا تطلب شيئاً خوفاً من أن أجرحها، سأحرق هذا الحب أيضاً مثلما فعلت من قبل، فزيادة هذه العاطفة تحولها من سعادة إلى ألم.

أتذكر حين خرجت فى وسط الليل وحيداً لأبكى عل ضفاف النيل الفسيحة مفكراً فيها و باكياً من أجلها، وأسترجع كل هذه الذكريات البعيدة الآن لأننى أحببت أستير، أحببتها كروح مقدسة ،وسأبحث فى السماء عن النجمة التى سأهديها لها، و حينها سأكون مشتتاً بين سعادتى وحزنى وهكذا كانت حالته شارداً فى أوهامه، والوقت يمر ولم يبقَ الكثير على لقائه مع حبيبته فى صالة نيوبى.

سار فى الرواق المؤدى إلى الصالة فى الميعاد المحدد بينهما، وسط التماثيل النصفية لقناصلة وأباطرة الرومان، خُيل إليه أن الحياة دبت فيها من جديد، طالبين منه أن يقص عليهم ما فعله للوطن وكيفية تأديته لواجبه كمواطن، فاحمرت وجنتيه خجلاً -لم يكن لشعوره بتأنيب الضمير- وحاولت شفتاه أن تنطق بإجابه واحدة ولكن -عبثاً- فكيف له أن يجيب على كانون،بروتو،تراخانو،وأعمالهم العظيمة تشهد بها الأجيال!؟... فحدَّث نفسه قائلاً:"عانيت كثيراً، فقد مكثت خمسة عشر سنة فى المنفى، وضَعت حياتى تحت رحمة رصاص الأعداء آلاف المرات، وبرهنت بالكلمات والدلائل أن النظام السياسى المُتبع فى الوطن :بأن يكون ملكية خاصة لشخص واحد، يعارض تطور المؤانسة بين البشرعندما خاب أملى من حاله، ومن

رسوخ العادات المكتسبة منذ عشرين عام، رغبت فى استخدام قدراتى وخبراتى لأمنحه مواطن فى يوم بعثه من جديد.
وبينما يهمهم، لمح وجه حبيبته الملائكى فقطع تفكيره، وإن كان هذا جيداً !،فالوطن بالنسبة له كالحمى، مجرد ذكر اسمه يشعره بالهذيان الذى يستحوذ على روحه، فقد ذهب لملاقتها قائلاً:
ـ "حسناً يا أستير!، أرى حول عيونك هالات تبين أنكِ بكيتِ منذ قليل سأكون سعيداً، لو زال الدمع إلى الأبد من حياة الناس جميعاً، وبالأخص أنتى... فكم سيكون كفراً بإرادة الله !
ـ السبب فى بكائى هو أنت، بكيت من أجلك، فعندما أجلس فى مخدعى صامتة وتأتى أنفاس ابنى الهادئة لتداعب وجهى، أتذكر كونك أب محروم من ولداك، ولاتعرف عنهما شيئاً، لابد وأن هذا يشعرك ببركان داخلى، ويجعلك تفكر فى الرحيل من أوربا والاستسلام لقدرك بعدم رؤيتهما مجدداً وهذا يعنى لك الموت ألف مرة، أى أسوء بكثير من الموت المقدر من الله، والآن أشعر بجزء من هذا الألم ،لذلك أبكى.
ـ لم أقل لكِ ذلك من قبل؟!...هناك أشخاص فرحتهم مغمورة بالدموع.
ـ آه فكما تعلم، أنقى الزهور متوجة بأشواك.
ـ أنتِ ملاك ...دعينا منى الآن، وتعالى لنرى تمثالاً سيحظى بشفقتك، ثم سندخل إلى صالة نيوبى، أما الآن سنذهب أولاً إلى آخر هذا الرواق...هل ترى هذه المجموعة الضخمة التى توحى بالشعور بالخوف أكثر من العطف ؟
إنه "لاوكون لباندينلى"، هوقسيس من (منيربا) يشبه هرقل فى صراعه مع الأسد، فقد حكمت الإلهة على هذا الأب المسكين بالموت أمام أعين أولاده، عاجزاً عن تخليصهم من أيادى الحية ... ولكن انظرى لهذا الموقف وهذه الحركة يعكسان رؤية رجل ثمل يصارع ليبتعد عن الأيدى التى تحاول الإيقاع به أكثر من رؤية كاهن شجاع يقاتل بقوة لاتقاوم، وعلى الرغم من أنه هزم وسقوطه كان ملحوظاً إلا أنه ظل ينازع حتى الموت،

هذة المجموعة ما هى إلا تقليد سيئ (للاوكون) للنحات "بيلبدريا" من روما، التى سندرسها ذات مرة سوياً، وذلك إن أراد الله أن يبتسم فى وجهى ولم يشأ أن أبقى تعيساً.

أنظرى إلى يسارك... هذا التمثال الجالس الذى يغطى (لاوكون) عليه، اقتربى و ضعى يدك على هذا الجرح المنحوت فى الرخام مكان القلب، وإن رأيتى من قبل جرحاً فى شفاة رجل ميت، فأغلقى عينك الآن، لأن هذا الفنان أظهره فى تمثاله بشكل قاس، ثم ألقى نظرة على هذا الوجه ألا توحى ملامحه بشئ؟ ألا ترين صبراً ملائكياً على المكروه أو تثير تعابير وجهه عاطفة ما؟... هل تعلمى ماذا يكون هذا الحجر؟ إنه "الأدونيس" لميجيل أنخيل، فمكان ما تجد شيئاً لهذا الرجل، يصبح من الضرورى أن تغمضى عينكى عما حوله، وأنا لا يمكننى التوقف عن فعل هذا.

شاهدى تمثاله "باكو" هذا الوجه الذى ينشر الضحكات ويدخل الفرحة إلى القلوب دون أن تعلم لماذا، أتشعرك رؤيتك له كرؤية واحد من هؤلاء الرجال الذى يحيون حياتهم دون اكتراث،حاملاً كأسه بيده، فرأسه ملئ بالتفاهات، ويرى فى كوبه هذا ثروات الكون، بطولات العظمة و ملاحم السعادة؟... فى الواقع هذا حقيقى فقد كان (الباكو) يهوى الثمالة، والآن تتطلعى إلى هذا الشاب المنحوت بواسطة (بوناروتى ميجيل أنخيل بوناروتى)-أبولو عصره*- أرى فى إبداعاته شيئاً لم أكتشفه فى غيره من الفنانين، فأول ضربة له بالمطرقة تشبه "فيات لوكس" لهسيدور"، فمثلاً تمثاله "سان ماتيو" الذى نراه كتلة حجارة، يعكس الفكرة الدقيقة لخلق الإنسان، وهذا ما لا نراه بأعيننا . إذا نظرتى وأمعنتِ النظر إلى التمثال الحجرى الموجود أمام بوابة قصر" لاس بياس أرتس"* ،سترين شخصاً جديراً بالاحترام و إيمانه قوى يفترق عنه شيئاً فشيئاً، ويبدو وكأنه ملاك من السماء تجسد فى صورة إنسان، وبعد دقيقتين سترينه يمشى بين الناس، يباركهم و يتعايش معهم، أنا لست فناناً يا أستير، ولكن أعمال (ميجيل أنخيل) تأسر روحى،

وأدركت لماذا يستحق هذه الشهرة عن جدارة.
*لاس بياس أرتس: قصر الفنون الجميلة فى مكسيكو سيتى عاصمة المكسيك، وهو دار الأوبرا الرئيسية هناك.
*أبولو: ألهة الجمال و قد يطلق على رجل رائع الجمال.
ـ قالت أستير فى سذاجة عذبة: وماذا عن هذا التمثال الهزيل الممسك بيده قصبه بدلاً من عكازه الرخامى؟ إنه يبدو مضحككاً بالنسبة لى.
ـ لا... إنه لتحفة فنية، يدعى"سان خوان بوتيستا" لدونتيلو، أنا أيضاً جاءنى هذا الانطباع فى أول مرة رأيته، ولكنه اليوم واحداً من تماثيلى المفضلة، فبنية جسده هذه كانت بسبب صيامه وأعماله التكفيرية، كما أن تركيبة عقله، وشغفه ومثابرته هم علاماته المميزة، وعلى الرغم من أنى لا أعلم شيئاً عن حياته، إلا أن جدتى قالت لى ذات مرة أنه مات منحوراً،فالرجل الذى يقتل على يد أعدائه بهذا الشكل القاسى، لابد أنه لدية العديد من الفضائل والعديد من الرذائل ليكفر عنها، أما عن القصبة ، فحراس هذا المعرض-كأغلبهم يعملون بالأجر- هم حقاً أشخاص آليون ليس لديهم عقل، ولذلك فهم من وضعوها بدلاً من عكازه، وهذا ما جعله يبدو كشحاذ، ويصبح مجالاً للسخرية، ولكن يجب ألا تنظرى إليها، وإنما تأملى اليد الممسكة بها، فهل تبدو لكى مضحكة؟... ناهيك عن أنها يجب أن تُشكل هكذا لتعكس طبيعته و معاناته، ولكن انظرى إلى هذه العروق المنتفخة، والأظافر المنفصلة عن الجسد، والأصابع التى ترتجف بلمسها للعصا رغم أنها حجارة، كل هذا ينبض بالحياة و تسير الدماء فى هذه اليد الرخامية، أما الباقى فغير ملفت للانتباه ...هل أحببتى مجيئك إلى هذه الصالة؟، وهل سررتى بمرشدك؟
ـ هذا السؤال يبدو رناناً.
ـ لن أعيد معلومات يمكن أن تُقرأ فى دليل القصر، فهذا يفوق ذاكرتى، كما أنه ليس أهل بنا... أنظرى كيف أننا هنا بمفردنا؟...

ترى هذا الشاب الذى ينسخ أحد التماثيل هناك، إنه فنان فرنسى، يرى أن لوحة (روبينس*) التى أمامنا، هل تريها؟ هى معركة يشهد بها الجميع أنها رسمت بإتقان رهيب، ولكنها لم تعجبنى، وفى رأيى مثلها مثل أية لوحة أخرى وضعت فيها مجموعات متراصة بطريقة هندسية، فقد رسم نفس الفنان هذه اللوحة على الجانب الآخر أيضاً، وهى تمثل معركة بحرية، ولكن تأملى فقط كيفية استخدامه للألوان، و توزيعه للأشخاص، ودعيكى من قحوف السفن، فبعد تطور الملاحة الأمريكية، تبدو هذه السفن كنبات اليقطين، فقط شيقة لإبرازها فكرة التقدم الذى حققه الفن، والآن ألقى نظرة سريعة على هذه التماثيل، وركزى فى أكثرما يعجبك بينهم ،وبعدها اسمحى لى أن أعرف ما هو؟

ـ هذه المرأة التى تنظر للسماء بنظرة الخائف الذى يتوسل إلى الله...من هذه يا اوخنيو؟ ألاتبدو لك بارعة الجمال؟

ـ آتى من أجلها كل يوم، إنها إحدى بنات نيوبى*، من النحت اليونانى، تعكس ملامحها شخصية أخرى تظل عالقة بذهنى ...ألا تذكرك بإحدى اللوحات المعروفة؟

فتنظر السيدة النبيلة للأسفل مسترقة نظرة نحو التمثال..

*بيتر بول روبينس: رسام فلامنكى، تعتبر أعماله مثالاً صارخاً على المدرسة الباروكية فى فن التصوير،تجمع بين أسلوب المدرسة الأيطالية و واقعية المدرسة الفلامنكية.

نيوبى:هى ابنه تانتالوس ملك فريجيا،كان لديها ٧ أولاد و٧ بنات ،تفتخر بجمالهم، وسخرت من ليتو لأن لديها أبن "أبولو" وأبنه" أرتميس"،فانتقما منها وقتلوا أبنائها،فعدت إلى بلدها تبكى حتى تحجرت فبعدد ما رأيتها أصبحت أسطورة بجماليون معقولة بالنسبة لى... لو أعدت الصلوات التى وجهتها لها، التوسلات التى تضرعت بها تحت قدميها، المودة التى غمرتها بها... ستقولى يا له من مسكين مجنون، يتضرع لحجر ! ولكن هذه الحجارة تعنى لى الكثير فهى كحلم جميل،

فلم أظن أبداً أنها ستغمرنى بهذه السعادة.

أتعهد لكى بحبى أمام نجمة كهذه، فالياركها الله!... لا يقنعك وعدى بحبك أمام تمثال،صحيح؟، فهل تعلمى أن فى باريس:العاشقين البؤساء يذهبون ليضعن أكاليلاً دائمة الخضرة على قبور" أبيلردو وألويزا"؟ هذه هى محرقة مقدسة لذى قلب لا يكذب ولا يتصنع... فهكذا هو حالى مع هذه القديسة الحجرية الطاهرة التى تتلقى كل عهودى.

ـ لا يا أوخنيو،لا تقسم... لقد كنت مجنونة... فلماذا ندنس بالكلمات المشاعر التى ينبض بها القلب؟

ـ حقاً أنتِ رائعة، صحيح يحلف فقط من يكذب أو من لديه الحاجة ليصدقه الناس... أما نحن فبطبيعتنا التى خُلقنا بها، ولن تكون الكلمات أبداً هى ضمان مشاعرنا... هل تعلمى أنى اكتشفت سراً ستروقك معرفته؟

ـ أووه ! دعنى أعرفه حالاً.

ـ أننى أحبك كما لو كنت أعرفك منذ عشر سنوات.

ـ لا أعلم كيف تهوانى أكثر مما أهواك، فالآن أبدالك شعورك منذ ثلاث سنوات، فقد فرضت على إلتزاماتى كأم، و واجبات لا يمكن التخلى عنها، إحتاج ابنى لكل رعايتى و عَطفى، ولكن اليوم لست الوحيدة التى تصرف عنه دمعه، ولا الوحيدة التى تمنحه العطف، يسرق زوجى مودته منى، ولكنى فى غضون وقت قليل سأنزعج منه كما أشعر مع والده .

ـ تظهر فى آلامنا هوية قاسية للغاية، يريد الله أن لا نستبقى على الشئ الوحيد الذى أتمنى حدوثة فى حياتى.

ـ أنت تتوهم يا أوخنيو، كل شخص يصنع حظه بيده، ومن يقال عنه شقى لابد و أن يكون قد فعل رذيلة لا تُغتفر، تفسد عليه كل شئ، وبما أنك لست كذلك، فيمكنك أن تلعب أى دور يجلب لك السعادة، فمن لديه قلبٌ كقلبك، ومن قادر على العيش ناكراً لذاته لهذه الدرجة، ينبغى أن لا نخلط بينه وبين معدومى الوجدان ذوو العقول الملوثة بالوحل.

ـ صورة المرأة التى لطالما رغبتها فى أحلامى الخيالية تتجسد فيكِ يا أستير، ولكن الكلمات كما قلنا ليست كافلاً لأفكرنا ومشاعرنا !... نتطلع إلى هذه التماثيل صديقتى، لتعطى حياتنا معنى و تدخل علينا البهجة... فيا لهذا الهدوء الذى يعم الأرجاء من حولنا! باستثناء هذين الجلادين المنكبين فوق بعضهما البعض، فسلوكهما معادى تماماً للجو المهيمن على المكان، أما البقية يتنفسن نعيم الفردوس... نقف وجهاً لوجه الآلهة التى قدسها اليونانون والرومانون عندما وضعوا أول خطواتهم فى شتى بلاد الأرض، فانظرى إلى "منيرا و بالاس" استحقا العديد من المعابد والكثير من إعجاب الناس، اليوم أصبحا تحفة فنية تفحص وتدرس كعلامة عن الماضى، و توضع فى أركان المتاحف لتزينها .

ألن يكون لدى الآلهة نفس هدفنا-صحيح أننا أقل تديناً وأعلى شأناً من القدماء- فى التعبد ولكن تحت مسميات أخرى؟

ـ أرى فيما قلته كفر.

ـ ولكن أنتم -أقصد البروتستانت- لم تعطونا دليلاً يبرهن على رأى مثل هذا!... ثم إننى لا أؤمن إلا بقليل من الخالدين (الله، الملائكة، النفس البشرية بعد الموت)... لو أن رسل الديانة المسيحية -التى هى الأنقى، والأكثر ضماناً لسعادة الإنسان- لم يحاطوا بمغالطات سخيفة تناضل بالحجة والعقل السليم، لقلت لكِ أن هذه المعتقدات ستستمر للأبد، لأنها تلائم وتكمل جنسنا البشرى، فكل ما يهدف للخير الواضح للناس، سيظل ينتقل من جيل إلى جيل ومن زمان إلى زمان، ولكن من نقلوا تلك المعتقدات قد ضلوا الطريق، وحتى نقتنع بهذا الرأى ليس علينا سوى النظر إلى إسبانيا وإيطاليا، فقد حازت المذاهب الفاسدة فى هاتين الدولتين الأوربيتين على عدد كبير من ممثلى السلطة و المفسرين لها وحاميها بلا تبصر أو تعقل، ألم تقرأى تاريخ لمحاكم التفتيش؟ هذه المحكمة المظلمة الصامتة التى تعد أسوأ بألف مرة من جمهورية فنيسيا *المرعبة، أنشأت فقط من

أجل أن تطهر إيمان المسيحين ،ولكنها كانت ابتكاراً عاد بالربح لمخترعه ليمنحه مكانة رفيعة بين الناس، معابد مقدسة لذكره، تُقدس فيها صورته، دعينا من هذا الأمر الآن صديقتى، فكل ظلم يقام باسم الصلاح الإلهى المطلق هو فتنة بين الناس.

ـ لقد أحزنتنى بما قلته للتو، كيف لا تؤمن بأحد من الخالدين؟

ـ أووه لا ! بلا أؤمن بأحدهم، ولكن دعينى أشرح لكِ الأمر لاحقاً.

ـ هل لديك أسرار؟

ـ أنسيتِ ماذا تعنى الخطوط الموجودة على جبينى؟

ـ أوخنيو ! أحملنى من هنا، أريد أن أتنفس الهواء النقى فى الحقول هل تريد الذهاب؟

ـ تنتظرنا بعد حوالى ساعة فى (كالساسيناس) السباقات الإنجليزية أعدك ألا أضايقك مجدداً، كما أعتذر منكِ بشدة.

ـ كم أنت قاسى.

بدأت السيدة النبيلة تدرك أن قدرها حملها إلى جوف بركان، ولكنها تغلبت عليه بطبيعتها الرقيقة ، فقد أحبته وعانت معه، ولكنها استسلمت لقدرها فى هدوء كما كانت تفعل طوال حياتها، فعادت إلى قصرها، غير حزينة ولكن مكتئبة، غيرنادمة ولكن خائفة من أن لا تتمكن من أن تخفف عن قلب حبيبها.

*جمهورية فنيسيا(البندقية): دولة وجدت لما يزيد عن ألف عام،ضمت معظم أنحاء شمال شرق إيطاليا، وسواحل وجزر البحرالأدرياتى، وتوسعت حتى شرق البحر الأبيض المتوسط، وكانت عاصمتها مدينة البندقية.

- VII -

بدا الجو هادئاً ، ولكنه ملئ بهذا الهواء المضطرب الذى عادة ما ينبىء بهطول المطر أو قرب زلزال، يشبه تماماً سكون المشاعر داخل القلب الذى يعانى منتظرة شرارة لتشتعل.

اجتمع الناس فى المنتزة الذى يدعوه فى أقاليم الشمال

"حديقة"، نظرا لهوائه الرقيق ،لكسائه الأخضرالعطر، وابتسامته التى تسطع عليه دائماً، يتسارع ملايين المحبين إلى هناك، فمنهم من يذهب لمشاهدة المتعة الحقيقية لسباقات الخيول ذات الأصول العربية والإنجليزية الرفيعة، والمتفاوتة فى خفتها وسرعتها، ومنهم من يهدف للاستمتاع بالمناظرالمتنوعة لمدينة فلورنسيا الراقية.

فى الواقع تكتظ المدينة بالعربات، الأشخاص الغرباء السائرين على الأقدام، والفرسان الذين يسرعون متجهين فى الغالب نحو المكان المقام فيه السباقات.

ترتدى سيدات الطبقة الراقية الملابس الفرنسية بدقة متناهية، و كأن الموضة المحلية غير جديرة بتزيين أجسادهن الجميلة، بينما عامة الشعب أو من يقال عنهم (الأرستقراطية العامية) فهم أكثر عجرفة من المركيزات و الدوقات.

يشعل الهواء الطلق الكساء الأخضر الذى يعكس أشعة الشمس فوق ثوبة متعدد الألوان فيبدو المنتزة مزيناً بألوان زاهية راسماً صورة وهمية لقوس قزح الممتد فوق سهل من الزمرد.

ملأ الحزن قلب أستير والدموع عينها، تظهر تلك النداوة فى العين عندما تعانى الروح وتحاول أن تقاوم سقوط الدموع، فتجلس مائلة على المقعد الفخم لعربتها الإنجليزية ذات المظلة، وتتجول بها شاردة، فتمر أمام أعينها ملايين الأشياء، ولكنها لا تبدى أى تأثر بها، أما حبيبها فيتأملها فى صمت، ينظر لها بعيناه -الذابلتان كما لو كان مستيقظاً للتو- مدققاً النظر إليها طويلاً و بعمق دون أن يعطى إشارة أو تعبيراً بسيطاً فيما يفكر، ثم قال:"من أى ملاك أخذتِ هذه الملامح يا أستير؟"

ـ قالت: ملاك السعادة !، ألا ترى كيف تسطع البهجة والسرورعلى شخصيتى بأكملها؟... فمنذ ساعتين تبسمت لى الحياة بكل مفاتنها، وتمتعت روحى بخيالات من الجنة... أدين لك بسعادتى تلك.

ـ هل حقاً تسمحى بوجودى بجانبك ؟... أعلم أنكِ حزينة، فهناك لحظات أكون فيها فظاً، وقد رأيتِ أحدهم بعينيك، فأعذرينى بالله عليكِ لو قلت لكِ أنى أيضاً أعانى ودائماً أقاسى، وحتى حين أسعد ليوم واحد أجنى بعدها شقاءاً، وحزناً، وكآبة وألماً. لايمكن أن يظل الإنسان على وتيرة واحدة، ولا أن يكون دائماً رقيقاً ولا غبار عليه، أما أنتِ فطيبة صالحة، لذلك يتوجب عليكِ الإشفاق على وتهدئتى إن غضبت، وأن تهبى روحى من كنوز طيبتك التى منحكِ الله إياها... هل تشكِ فى؟ آاااه! فى هذه الحالة ماذا أرغب فى هذا العالم ؟ ألم أحطم مفاهيم كل الحقائق والأوهام؟ ولكن لا زال هناك حلم أعشقه يجول فى صدرى، ولكنه صعب المنال، وسر لا أجرؤ على البوح به...لقد حلمت بكل شئ فيكِ، روحك، مظهرك، هذه التركيبة التى ظننت أنه مستحيلاً إيجادها على الأرض، ولكنى وجدتها وأحببتها، وأنا كلى ملك لكِ الآن... فماذا أرغب فى أكثر من ذلك؟

ـ أية طيبة يا أوخنيو! أنظر كيف تغيرت حياتى بكلمة منك وبضحكة رسمت على شفتيك!... إننى سعيدة حقاً، أنظر كيف ينافس وجهى الآن نضرة الزهور، وحُسن هذه السماء التى تراها جميلة...أنظر إلى فأنا لست خائفة قارن بينى وبينهم.

ـ صرخ بشكل جاوز الحدود قائلاً:" أنظرى لهم، أنظرى يا أستير كأنهما شبحان يهربان من قبور معتمة فى سرداب لموتى الرومان... من سيغلب يا ترى؟... المرتدية صدرية زرقاء؟... أوه ماذا يحدث ؟! إحداهما تجرى بيأس، وماذا عن الأخرى؟...إنها الإنجليزية !

يصرخ أنصار الإنجليزية ذات صدرية بيضاء قائلين:"حفظكِ الله! عفاكِ الله !، بدت كما لو كانت نيزكاً يهبط على ملاح وسط البحار، أو على سهل بامبا* المترامى فى الصحراء الكئيبة، بينما تجرى بسرعة مُهر... فظل هؤلاء الثائرين يعوون بهتفاتهم، بينما أنصار الأمريكية اثنان فقط، هم والديها يقودا ابنتهما المنهكة التعيسة نحو العربة التى تنتظرها ...

ـ رأيتى يا أستير كيف كانت تنبؤاتنا صائبة؟ فلا يمكن أن تطلبِ من طائر الطنان الظريف أن يلعب دور ثور، ولا أن يكونَ للنسر عادات الحمامة اللطيفة!.عندما تنقلب موازين الطبيعة، يجب أن تضيف الحتمية تأثيرها، وفى هذه الحالة لا يمكن للعواقب أن تخالفها.

ـ فلنرحل يا أوخنيو... إلى هذه الغابات حيث تكون العزلة هى صديقتنا، فلنذهب لنرى تمايل مياه نهر أرنو، بدلاً من هذه الخيول التى تتبرز مع البشر هنا، ثم نذهب لتناول الطعام معاً فى المنزل ومن ثم تأخذنى لدار الأوبرا، فاللورد لايبرح هذه الأماكن، وبعدها يذهب مع أصدقائه لإقامة حفلة من حفلاتهم، إذا تركتنى: سأكون وحيدة حزينة وستضيق روحى وسأبكى دون أن أجد من يعزينى... فهل ترافقنى؟

ـ وكيف لى أن أقاوم هذا! أظن أن"لوسيا" هى من ستعزف الليلة،أعرف أنها تؤثر فيكِ بشدة.

ـ ولكنى أقوى بجانبك، وسأواجه كل الألام و المخاطر ما دمت معك ... فكم سنستمع معاً !

ـ كم أنتِ حالمة!

ـ فلنذهب يا صديقى ...

أشعل سباق الصباح الرغبة فى التسلية ليلاً فى هذا المجتمع (الفلورنتينى) المبتهج و المفعم بالحركة والحياة.

احتشد الناس وبالأخص أصحاب المجتمع الراقى فى الجزء العلوى من المسرح، و كذلك الصالة أمتلأت بالكامل، دخل المركيز بيرنى و زوجتة جيلفا فى مقصورة أستير، التى همت مسرعة بطبيعتها الحنونة المليئة بالحيوية و أخلاقها الرفيعة لتعانق صديقتها وتلاطفها، بينما توجه حديثها إلى أوخنيو قائلة: "ينبغى على أن أخاصمك الآن أيها السيد الأمريكى !".

بدأت الأوركيسترا بتقديم المطلع الموسيقى الرسمى، وبعدها انتشرت أنغام لوسيا كأريج باقة زهور نفيسة تجعلك تشرد وتفكرفى أشياء عديدة ولكن روحك مسلوبة، فهى تخطف

قلبك و تنتزع وجدانك، فينتهى بك الأمر متعايشاً معها.
ـ قالت جيلفا :" لم نأتِ يا عزيزتى لنقتحم مقصورتك بلا داعى ولا لنستمع إلى أنين لوسيا الناعم ،وأنما لندعوكما للذهاب إلى الرقص بعد المسرح، فحتى لا يكون هناك مجال لترفضا ندعكما، أتسمعنى أيها الأمريكى ؟
ـ قالت السيدة ويلسون: أنه للطف منكِ، ولكنى متعبة للغاية...
* بامبا: سهل معشوب مترامى الأطراف فى أمريكا الجنوبية.
ـ فقال الفارس:"بلا أجبريها على الموافقة مركيزة ، فهى مكتئبة وبحاجة إلى التسلية والمرح... أما من ناحيتى، فهذه الدعوة أسعدت قلبى، لأنى ما زلت متحمساً منذ حفلتك الأخيرة، وأرى أن الفالس تنتظرنا لتخر فيها قوانا جميعاً".
ـ قالت المركيزة: كم أنت رجل بغيض ! لأنك دائماً لديك رغبة ملحة فى أن تكون موضع تقدير ممن حولك، كما اعتقد زوجى أنه سيترجك المرة القادمة...هل تعلم أن هذه تعد فظاظة فى سلوككم الأمريكى، وعليك أن تشفى منها...
ـ أجابها : حسناً اتفقنا يا عزيزتى،سأشفى منها، أما الليلة فبمجرد أن تبدأ حفلتك، سنكون هناك أليس كذلك يا سيدتى؟
ـ قال بيرنى: وسيكون اللورد ويلسون موجوداً أيضاً.
ـ فقالت أستير: حسناً إنتظرانى...
وهكذا ختمت بملاطفات جديدة وداع هذين المخلوقين الرائعين.
ـ وبعد قليل قالت لأوخنيو: هناك شئ داخل صدرى يخنقنى يبدو أن الهواء قل داخل المسرح، فأنا أتنفس بصعوبة، كما أن الزحام الإضاءة ونغمات هذا الناى التى تبكى لتؤثر فينا يزعجوننى... أخرجنى لأتنفس الهواء الطلق...كم كان يوماً ممتلوءاً يا صديقى !
ـ أجابها: ولكنه كان رائع يا نجمتى !...أووه ولكن ماذا بكى يا أستير؟!... لما أنتى شاحبة هكذا؟... ولما تغير لونك لهذه الدرجة؟...

أنتِ تبكى!...تبكى وأنا بجانبك !
ـ أغثنى يا أوخنيو ، أدركنى...فأنا أخفى عنك سراً رهيب ولهذا...نعم ولهذا أبكى...أشعر أن تمدد الأوعية الدموية فى قلبى ستفتره ... أعطينى يدك... أضغط على قلبى حتى لا يحطم الآن... ينبض قلبها بشدة وتزداد دقاته عنفاً، و تحت تأثير هذه الانفعالات المنهكة و الألم المجهول سببه ،خرت قواها و أدركها الموت كما لو تخللت السموم داخل الحلم الذى لطالما حلمت به.
ـ قال أوخنيو بشكل هائج : لا يا حبيبتى ،لا تبكى ،لن يمكنكِ الموت هكذا بين ذراعى وأمام عينى ... هل هذا مقدر من عند الله؟...تماسكى يا أستير، تشجعى يا حبيبتى، أنا بجانبك وأدعمك، ستكونى أقوى ...هيا، فلنذهب معاً حتى السماء...
ولكن نفذت أرادة الله وماتت أستير، بينما أوخنيو يحارب مشيئة الله ليغيرها ولكن عبثاً.
دخل جسدها الهالك فى قبر هادئ، ولكن روحها ظلت تحلق حوله وتردد كلمات دانتى فوق هذه الحجارة الرخامية ناصعة البياض، فكان بيت الشعر هذا هو آخر ذكرى لها مع حبيبها الشقى الذى كان عزائها الوحيد فى لحظة ما فى حياتها.
لم أتمكن من معرفة قيمة الحياة وأنا أمتلكها، والآن بعدما عرفت أصبحت أبكى عليها...

فلورنسيا، مايو ١٨٥١